christianlib.com

أقدم النصوص المسيحية

سلسلة النصوص اللاهوتية

٧

في تجسد الكلمة
وظهوره بالجسد من أجلنا

للقديس أثناسيوس الإسكندري

www.christianlib.com



منشورات المكتبة البولسية

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

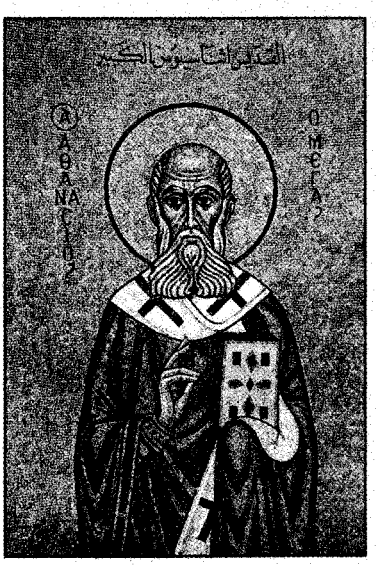
أقدم النصوص المسيحية

سلسلة النصوص اللاهوتية

٧

في تجسد الكلمة
وظهوره بالجسد من أجلنا

للقديس أثناسيوس الإسكندري



منشورات المكتبة البولسية

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في تجسد الكلمة
وظهوره بالجسد من أجلنا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

طبعة أولى
١٩٩٨

●

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية
جونيه شارع القديس بولس - ص.ب ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٠٩/٩٣٠٥٢
بيروت - شارع لبنان - هاتف ٠١/٤٤٨٨٠٦
زحلة - الحمراء بلازا - هاتف ٠٨/٨١٢٨٠٧

بالتعاون مع

A.T.I.M.E.
رابطة الكليات والمعاهد اللاهوتية في الشرق الأوسط
المنتسبة إلى

مطابع كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي
ص. ب. ٥٣٧٦ بيروت - لبنان
هاتف: ٣٥٣٩٣٨-٧٤٢٠٨٨
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال
P.O.Box 4259 Limassol. Cyprus
فاكس: 344894
تلفاكس: 05 - 324496

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

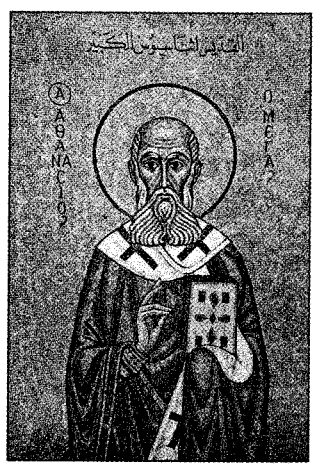
أقدم النصوص المسيحية

سلسلة النصوص اللاهوتية

٧

في تجسد الكلمة
وظهوره بالجسد من أجلنا

للقديس أثناسيوس الإسكندري



تعريب
الأب حنا الفاخوري

منشورات المكتبة البولسية
coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عُرِّب هذا الكتاب عن النص اليوناني الصَّادر في سلسلة

SOURCES CHRÉTIENNES N^{0} 199

ATHANASE D'ALEXANDRIE

sur l'Incarnation du verbe

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

القدّيس أثناسيوس الإسكندريّ

أ – حياته

يغلب الرَّأي أنّ أثناسيوس وُلِد في الإسكندرية سنة ٢٩٥، وقلّما اهتمّ التاريخ لنشأته الأولى في أُسرته، والشيء الثابت أنّه حظي في شبابه باهتمام الأسقف اسكندر ورعايته. وممّا لا شكّ فيه أنّه جمع في صدره ثقافةً واسعة وعميقة، وتربية مسيحيّة صلبة العقيدة، واطّلاعاً واسعاً على الكتاب المقدّس كان له أمضى سلاح في مواقفه الجدليّة. وممّا يُذكر أنّه اتّصل بالقدّيس أنطونيوس الكبير، وتتلمذ له في دروب النُّسك والزهد والقداسة.

توفّي الأسقف اسكندر في ١٧ نيسان سنة ٣٢٨. فعلا صوت الكنيسة والشعب مطالباً بأثناسيوس خليفةً له، وقد نُصّب على كرسيّ الإسكندرية في ٨ حزيران من تلك السّنة، وبدأت حياته الرسوليّة بنشاطٍ لا يعرف هوادة، ولا سيّما وقد عصفت بالبلاد ريح الآريوسيّة، فراح يطوف في شتّى النواحي لتثبيت أبنائه في الإيمان القويم واقتلاع جذور البِدَع التي كادت تقضي على الروح المسيحيّة الحقيقيّة.

وأمام مواقفه الصّلبة راح الآريوسيّون يوجّهون إليه سهامهم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

السامّة ويرشقونه هم وحلفاؤهم المليسيّون، بالاتّهامات الخطيرة، وهو كالقلعة الصّامدة لا يحيد عن مواقفه الدفاعية، فاستعدَوا عليه السلطات المدنيّة، فنفوهُ خمس مرّات، وكان كل مرّة يعود بإيمانٍ أشدّ صلابة، وتصميم على العمل أشدّ اندفاعاً. وكان نفيُه الأوّل من ١١ تمّوز ٣٣٥ إلى ٢٣ تشرين الثاني ٣٣٧، فانطلق في أثنائه إلى بلاد الغول. أمّا نفيُه الثاني فكان من ١٦ نيسان ٣٣٩ إلى ٢١ تشرين الأوّل ٣٤٦، سافر في أثنائه إلى رومة حيث قضى ثلاث سنوات بعث في أثنائها الحياة النسكيّة في الغرب. وأمّا نفيه الثالث فكان من شباط ٣٥٦ إلى ٢١ شباط ٣٦٢، وقد انطلق في أثنائه الى الصحراء وعاش في كهوف النسّاك يدبّج الرسائل إلى الأساقفة وإلى كنيسته في الإسكندرية واعظاً ومدافعاً، ومنسّقاً الحياة الرهبانيّة بنفحته القدسيّة العالية. وكان نفيُه الرابع من ٢٤ تشرين الأوّل ٣٦٢ إلى ٥ أيلول ٣٦٣، بأمر من يوليانوس الجاحد، فانطلق إلى ممفيس ومنها إلى صحراء طيبا. وما إن عاد إلى كرسيّه الإسكندري حتّى نُفِي للمرّة الخامسة من ٥ تشرين الأوّل ٣٦٥ إلى ٣١ كانون الثاني ٣٦٦.

ظلّ أثناسيوس سحابة حياته كلّها أهمّ أركان الإصلاح النيقويّ، وامام الأرثوذكسيّة الشرقيّة، وقد توفّي بعد حياة حافلة بالأخطار في شهر أيّار سنة ٣٧٣.

٢ – آثاره

لأثناسيوس آثار كثيرة منها ما هو أصيل ومنها ما هو متحول نُسِب إليه ولم يثبت أنّه له. ومن آثاره الأصيلة بحثه **في التجسُّد** الذي يرجعه بعض العلماء إلى ما بين سنة ٣٣٥ وسنة ٣٣٧.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١ – هدف أثناسيوس في بحثه هذا أن يردّ على اليهود والوثنيّين، ويقدّم للمؤمنين تعليماً دقيقاً يعالج فيه سرّ التجسّد معالجة عميقة تحصّنهم من أضاليل العصر وتثبّتهم في عقيدتهم الخلاصيّة. وقد ضمنّ مقدمته حقائق لاهوتيّة تتعلّق بخلق الكون، وبأنّ هذا الكون قد جُدّد خلقُه بالكلمة الذي كان في أصل خلقه الأوّل.

٢ – بعد هذه المقدّمة ينطلق أثناسيوس في تفصيل مقدّمات التجسّد في تصميم الخلاص، فيبيّن ملاءمة هذه المقدّمات للتجسّد: ويظهر أنّ الإنسان بالخطيئة فقد الصورة التي مُنِحها، وتعرّض بسبب ذلك للفساد؛ ولكنّ هذا الفساد الذي تعرّض له ليس عدماً. فكان من ثمَّ لا بُدَّ من افتداء البشر لاسترجاع الصورة والانتصار على الفساد بالقيامة.

٣ – لهذا اتّخذ الكلمة جسداً لكي يستطيع أن يموت فيحقّق الموت الذي حكم به على البشر وينتصر على الموت باستعادة الصورة في الجسد، وبالانتصار على الفساد بقيامة الجسد من بين الأموات وباسترجاع المعرفة الفائقة الطبيعة.

٤ – هكذا كان اتحاد الكلمة بجسد بشريّ ينبوع حياة، وبولادته من عذراء حافَظَ على سموّه الفائق الطبيعة.

٥ – بعد ذلك يقف أثناسيوس في وجه اليهود فيقدّم لهم من الكتاب المقدّس الشهادات المختلفة التي تدعم تعاليمه في التجسّد، وفي مجيء الماسيّا.

٦ – أخيراً يتوجّه الى اليونانيّين والوثنيّين ويُبيّن لهم شطط فلسفتهم وبُطل أوثانهم وأعجوبة انتصار المسيحيّة وانهيار الفلسفات والآلهة أمام عقيدتها الإلهيّة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بحث القدّيس أثناسيوس
رئيس أساقفة الإسكندريّة
في تجسد الكلمة
وظهوره بالجسد من أجلنا

تمهيد: وحدةُ العمل الإلهيّ

١ – لقد تناوَلنا في ما تقدّم، وفصّلنا تفصيلاً كافياً، بعضاً من النقاط الكثيرة: ضلالةَ الوثنيّين وتقواهم الخرافيّة بالنسبة الى الأوثان؛ كيف نشأت عندهم في البدء هذه الفِرية، عندما دارَ في خلَدِ البشر أن يؤدّوا العبادة للأوثان انطلاقاً من مُعاناتهم للشرّ؛ وقد عرضنا أيضاً، بعون النعمة الإلهيّة، لبعض نقاطٍ تتعلّق بألوهةِ كلمةِ الآب وعنايته، وقدرته الشّامِلَتين، وعنَينا بذلك أنّ الآبَ الصّالح يدبّر كلَّ شيءٍ بذاتهِ، وبه كل شيء يتحرّك، وفيه كل شيءٍ يحيا. فَلْنُواصِل، يا صديقَ المسيح الأصيلَ والعزيزَ جدًّا، ولْنَسُق في سياق إيمانِ ديانتنا، وصفاً مُفصّلاً لتجسُّد الكلمة، ولْنَعْرض ظهوره الإلهيّ، من أجلنا، ذلك الظهور الذي يُندِّدُ به اليهود، ويهزأُ به اليونانيّون، فيما نجلّه نحن ونعبدهُ؛ وهكذا يكون عندك للكلمة، في

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ظاهرِ تنزُّله، تقوى أعظمُ وأغنى. وكلّما شتدَّ هزءُ الكفَرةِ بهذا التجسُّد ازدادتِ الشهادةُ بألوهته. فما لا يُدركُه الناس على أنّه مُستحيل يُظهرهُ هو ممكناً؛ وما يستخفّ به الناسُ ويعدّونه أمراً غيرَ لائقٍ يُبيّن هو أنّه لائقٌ بصلاحه؛ والحقيقة البشريّة البسيطة التي يتهزّأ بها الناسُ باسم حكمتهم، يُظهرُ هو بقدرتِه أنّها إلهيّة. إنّه ينقض الأوهامَ الصَّنميّة بظاهرة تنزُّله وبقوّةِ صليبه. ويهدي في سرّه الهازئين والكافرين فيعترفون بلاهوته وقدرته. ولكن في سبيل هذا العرض، يبدو من الضّروريّ التّذكُير بما سبق. هكذا فقط تستطيع أن تُدركَ سببَ ظهور كلمة الآب بالجسد وهو العظيم والقدير بلا حدّ، ولن يحملك الوهمُ الى أنّ المخلّص حملَ جسداً في سياقِ طبيعته. ولكنّه، وهو الخالي من الجسد بطبيعته، وهو الكلمة، ظهر لنا مع ذلك في جسدٍ بشريّ، لأجل خلاصنا، وذلك بدافع من صلاح أبيه ومحبّته للبشر. وإذ كنّا آخذين في عرض ذلك، كان من المُلائم أن نبدأ بالكلام على خليقة الكون وعلى الله خالقها، حتّى نتطرَّقَ، كما ينبغي، إلى أنّ خليقة هذا الكون الجديدة هي من صنع الكلمة الذي خلقها منذُ البدء. ولن نجدَ أيّ تناقضٍ في أن يُجريَ الآب خلاصَ الخليقةِ في مَن بهِ كوَّنها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الأول

مقدّمات تجسد الكلمة في تدبير الخلاص

٢ – كثيرونَ شرحوا شُروحاً مُختلفةً ظُهورَ العالم، وخلقَ كلّ شيءٍ، وكان تحديدُ كلِ واحدٍ على هواه. فالبعضُ يُعلن أنّ كل شيءٍ ظهر تلقائياً وعن طريقِ الصُّدفة؛ من هؤلاءِ الأبيقوريُّون وقد تخيّلوا أن لا وجودَ للعناية العامّة، وقالوا بما يخالفُ الواقِعَ. فلو حدثَ كل شيءٍ تلقائيًّا في غياب العناية لوجبَ أن تكون الكائناتُ متماثلةً ولا فَرقَ فيها بينَ كائن وآخَر. كما لو كان الأمرُ في جسمٍ واحد، فيكون كلُّ شيءٍ شمساً أو قمراً، ويكون الجسد كلّه عند البشر يداً أو عيناً، أو رجلاً. وما من شيءٍ كذلك. فهنا ترى الشمسَ، وهناك القمر أو الأرض، وكذلك في الجسم البشريّ هنا رِجْلٌ، وهناكَ يدٌ أو رأسٌ. فمثلُ هذا النظام في الأشياء يدلّ على أنّها لم تحدث تلقائيًّا؛ يدلُّ على أنّ لِحُدوثِها عِلّة؛ ويحملُ على التصوُّر أنّ الله هو الذي رتّب الأشياء كلَّها وصنَعها. ولكنّ آخرين، ومنهم أفلاطون العظيم عند اليونانيّين، يذهبون إلى أنّ الله خلق الكون من مادّة سابقةٍ لا أصلَ لها. ولو لم يسبقْ وجودُ هذه المادّةُ لما استطاع اللهُ شيئاً، كما أنّه لا بُدّ من وجودِ الخشب قبلَ النجّار لكي يستطيع النجّارُ أن يعالجَهُ. والذين يتفوَّهون بمثل هذا الكلام لا يَعُون أنّهم يُلصقون بالله عجزاً. فإذا لم يكن هو

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

نفسُه علّةَ المادَّة، بل كان صانع الأشياء انطلاقاً من المادَّة الأساسيّة، عُدَّ عاجزاً، بقصُورهِ عن صنع أيّ شيء بدون المادّة، كما أنّه من العجز عند النجّار أن لا يتمكّن من صُنع أيّ شيء من الضروريّات بدون خشب. واذا افترضنا أنّ المادّةَ قد خلت فيكونُ أنّ الله لم يصنَعْ شيئاً. كيف يُدعى خالقاً وإلهًا مَن يستمدُّ القدرةَ على عملهِ من غيره، أعني المادّة؟ فالله إذن في نظرهم مجرَّدُ صانع، لا الخالق الذي يعطي الكينونة، إذ إنّه يُعالجُ مادّةً ما وليس هو علّةَ تلك المادّة. فلن يُدعى بعدُ خالقاً، إذا لم يكن علّة المادّة التي تتكوّن منها الأشياء. والهراطقة يختلقون لأنفسهم إلهًا مخالفاً كلَّ المخالفة لأبي سيّدنا يسوعَ المسيح، عامهينَ كلَّ العَمهِ في ما يقولون. فقد قال الربُّ لليهود: «أما قرأتُم أنَّ الخالقَ من البدء خلقَهما ذكراً وأنثى، وأنّه قال: لذلك يترك الرَّجلُ أباه وأُمَّه ويلزمُ امرأتُه ويصيران كلاهما جسداً واحداً؟» (متى ١٩: ٤ – ٥) ثمّ قال مشيراً الى الخالق: «وإذن فما جمَعُه الله فلا يُفرِّقْهُ إنسان» (متى ١٩: ٦) – فأنّى لهؤلاء أن يفكّروا في أنّ الخليقةَ غريبةٌ عن الآب؟ وإذا كان يوحنّا يُجْمِل كلَّ شيءٍ ويقول: «به كُوّنَ كل شيء، وبدونه لم يكن شيءٌ ممّا كُوِّن» (يو ١: ٣)، فكيف يكون هنالك إلهٌ غير أبي المسيح؟

٣ – هذا ما يَرْوونه في خُرافاتهم. ولكنّ التعليم الإلهيّ وإيمان المسيح يفضحان هذَيانَهم على أنّه كفْر، وفيهما أنّ الكائنات لم تحدُث تلقائيًّا، وكأنّها لم تكن موضوع عناية، ولم تحدث عن مادّة سابقة، وكأنّ في الله عجزاً؛ بل من العدم وبدون أيّ وجودٍ سابق، أنشأ الله كل شيء في الكينونة بالكلمة كما أعلن ذلك بموسى القائل: «في البدءِ خلقَ اللهُ السماءَ والأرض» (تك ١: ١)، وفي كتاب الراعي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

القيّم: «قبل كل شيء آمِن بأن لا إله إلاّ الله الواحد الذي خلق كل شيءٍ ونظّمه، والذي أخرج كل شيء من العدم الى الوجود.» وهذا ما أشار إليه بولس بقوله: «بالإيمان نفهمُ أنّ العالم قد أُنشئ بكلمة الله، بحيثُ إنّ المرئيّات صدرت عمّا لا يُرى.» (عب ١١: ٣). فإنّ اللهَ صالح، بل هو ينبوع الصّلاح. ومن كان صالحاً لا يغارُ من أحد. وإذ لم تكن فيه غيرة من وجودِ أيّ شيءٍ خلق الكلَّ من العدم بذاتِ كلمته ربّنا يسوع المسيح. وفي هذا الكلّ كان له على الجنس البشريّ عطفٌ خاصّ، فإذ وجده غيرَ قادرٍ، في صيغة تكوينه، أن يستمرّ في الوجود الدائم، أنعم عليه بميزة خاصّة عظيمة، فلم يخلقِ البشر كسائر الأحياء غير العاقلة التي على الأرض، بل خلقهم على صورته وأشركهم في قدرة كلمته الخاصّ: مالكين ظلال «أللّوغس» وصائرين «لوغسيّين»، بإمكانهم أن يستمرّوا في السّعادة، إذا عاشوا في الفردوس العيشة الحقيقيّة، عيشةَ القدّيسين نفسَها. وإذ كان عالماً بأنّ إرادة البشر قد تميل الى هنا أو هناك، بادر الى تحصين النعمة التي وُهبَتْها، بوصّية خاصّة ومكانٍ مُعيَّن. وهكذا أدخلهم فردوسَهُ، وكانت الوصيّة أنّهم إذا حافظوا على النعمة أو لبثوا على الفضيلة تكون لهم في الفردوس حياة خالية من الحزن والألم والغمّ، هذا فضلاً عن الوعد بحياةٍ خالدة في السماوات. ولكن إذا خالفوا الوصيّة ومالوا عنها، وأصبحوا بذلك أشراراً، يعرفون أنّ فساد الطبيعة سينالهم بالموت، وأنّ الفردوس سيُغلق في وجههم، وأنّهم، وقد قضِيَ عليهم بالموت مذ ذاك، سيُقيمون على الموت والفساد. وهذا ما سبق للكتاب الإلهيّ وعناه بقول الله «من جميع شجر الجنّة تأكل، وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكلْ منها فإنّك يومَ تأكل منها تموت موتاً» (تك

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢ : ١٦ – ١٧). ولكن ألا يعني «تموت موتاً» فضلاً عن الموت، المكوث الحقيقي في فساد الموت.

٤ – قد ينالك العجب عندما ترانا، ونحن في صددِ الكلام على تجسُّد الكلمة، نجول في أصل البشر. ولكنّ هذا ليس غريباً عن هدف بحثنا؛ إذ إنّه من الضروريّ، عندَ الكلام على ظهور المخلّص من أجلنا، أن نتكلّم أيضاً عن أصل البشر حتّى تعلم أنّ حالنا كانت سببَ نزوله، وأنّ عصيانَنا استدعى محبّة الكلمة للبشر، بحيثُ إنّ الربَّ جاءَ إلينا وظهر بين البشر. فقد أصبحنا سببَ دخوله في جسد، ولأجل خلاصنا حملته محبّته على أن يصير بشراً وأن يظهر في جسد. هكذا صنع اللهُ الإنسان، وقد أراد له أن يبقى في عدم الفساد، ولكنّ البشر، وقد تولاّهم الإهمال ومالوا عن تأمُّلِ الله، وتصوّروا وتخيّلوا لأنفسهم الشرّ، كما قيل في ما سبق، ونزل فيهم حكمُ الموت الذي هُدِّدوا به قبلاً، ولم يلبثوا على ما كانوا عليه في بدءِ أمرهم، بل فسدوا في أفكارهم، وبسط عليهم الموتُ سلطانه. فإنّ مخالفة الوصيّة عادت بهم إلى طبيعتهم، حتّى تحمّلوا بحقٍ، هم الخارجون من العدم، في مَجْرى الزَّمان، الفسادَ الموجَّه الى العدم. فإذا كانت طبيعتهم قديماً هي العدم، وإذا كانوا قد دُعوا إلى الوجود بحضور الكلمة ومحبّته للبشر، فيكون أنّ البشر، وقد فقدوا معرفة الله ومالوا نحو العدم – لأنّ الشرّ عدم ولكنّ الخيرَ هو كينونة لصدوره عن الله الكائن – فإنّهم فقدوا أيضاً الكينونة التي هي للخلود. هذا ما يعنيه أنّهم إذا انحلُّوا لبثوا في الموت وفي الفساد. والإنسان بطبيعته مائت لأنّه آتٍ من العدم؛ ولو حافظ بالتّأمُّل على مشابهته للذي هو كائن، لأبطل الفساد بحسب الطبيعة، وظلَّ غير قابل الفساد كما تعلن ذلك

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الحكمة بقولها: «مراعاة الشرائع ثبات الطهارة» (حك ٦: ١٩) ولو مكث على عدم الفساد لعاش عيشة الله، كما يقول ذلك الكتاب الإلهي في بعض مواضعه: «قد قلتُ إنّكم آلهة وبنو العليّ كلّكم إلاّ أنّكم مثل البشر تموتون وكأحدِ الرؤساءِ تسقطون» (مز ٨١: ٦ – ٧)

٥ – الله لم يَصْنَعنا من العدم وحسبُ، ولكنّه أعطانا أيضاً أن نعيش بحسب الله بنعمة الكلمة. ومع ذلك فقد مال البشر عن الحقائق الأزليّة، وأغواهم الشّيطان فأنزلقوا نحو الأشياء الفاسدة وأصبحوا مسؤولينَ عن فسادهم في الموت. وكما قلتُ قبلاً، كانوا بطبيعةٍ قابلة الفساد، ولكنّهم بنعمة اشتراكهم في الكلمة كان بإمكانهم أن يتخلّصوا من حال طبيعتهم هذه، لو مكثوا على الصلاح. وهكذا بسبب الكلمة الذي كان حاضراً لديهم كان بإمكانهم أن يتجنّبوا الفساد الذي كان في طبيعتهم، على حدّ كلام الحكمة: «إنّ الله خلق الإنسان خالداً، وصنعهُ على صورة ذاتهِ، لكن بحسَد إبليس دخل الموتُ إلى العالم.» (تك ٢: ٢٣ – ٢٤). فماتَ البشر، وهاجمهم الفسَادُ بكلِّ ماله من قوّة؛ هاجم الجنسَ كلّه بقوّةٍ تفوّقت على قوّة الطبيعة، ولا سيّما وانّه كان مُتسلِّحاً بالتهديد الإلهيّ الذي جرّته عليهم مخالفةُ الوصيّة. وهكذا انغَمس البشر في الخطايا ولم يضعوا حدًّا لفسادهم، بل اندفعوا في انزلاقهم اللاشعوريّ فتجاوزوا كلَّ حدّ، هم الذين في البدء ابتدعوا الشرّ واستجرّوا عليهم الموتَ والفساد؛ وتحوّلوا في ما بعد إلى الجرائِر ومضوا إلى أقصى حدّ من الجَوْر؛ ولم يقتصروا على شرّ واحد، بل أغرقوا في ابتداع شرور جديدة، واستشرَوا في تطلُّب الخطيئة. ففي كل مكانٍ فجورٌ ولصوصيّة، وامتلأتِ الأرض قتلاً ونهباً. أمّا الشريعة فلم يعبأ بها أحدٌ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في حالات الفساد والظلم. وكانت الشرورُ شُرورَ كل واحدٍ وشرورَ الجميع معاً. وكانت المُدنُ تحاربُ المُدنَ، وكانت الشعوب تناوئُ الشعوب، ومزّقت الأرضَ الثورَاتُ والفِتَنُ، وكان كلّ واحدٍ يُنافِسُ الآخَر في العصيان. ولم يتورّعوا من ارتكاب ما يخالف الطبيعة كما يقول رسول المسيح: «فإنَّ إناثهم غيّرنَ الاستعمال الطبيعيّ بالذي على خلاف الطبيعة، وكذلك الذكورُ أيضاً، فإنّهم تركوا استعمالَ الأُنثى الطَّبيعي، والتهبوا بعشق بعضهم بعضاً، ففعلَ الذكورُ بالذُّكورِ الفحشاء، ونالوا في أنفُسهم الجزاءَ اللائِقَ بضلالهم.» (رو ١: ٢٦ – ٢٧).

ضرورةُ افتداءِ البشر وموافقتُه

٦ – وكانت قوّة الموتِ تتعاظم، والفسادُ يتفاقم، والجنس البشريّ يتلاشى. كان الإنسانُ العاقِلُ، المخلوقُ على صورة الله، يَتوارى، والعمل الذي أحدثهُ الله، يُهدَّم؛ لأنّ الموت، كما قلت، كان مُذ ذاك يستمَّد قوّته علينا من الشريعة، ولم يكن من الممكنِ التهرُّبُ من الشريعة، لأنّ الله هو الذي سنّها عقبَ المعصية؛ وبوجيز الكلام كان ما يجري في الحقيقة غيرَ معقولٍ ولا لائق: غير معقول أن يكون الله غيرَ صادقٍ في قوله، إذا كان الإنسان الذي حكمَ عليه بالموت إن خالَفَ الوصيّة، لم يمُتّ بعد مخالفته الوصيَّة بل أبطل حكمَ الله؛ فيكون الله غير صادق إذا قال إنّنا نموت، ولم يمُت الإنسانُ بعد ذلك. وغير لائق أن تبيدَ كائناتٌ خُلِقت «لُوغُسيَّة» واشتركت في «اللُّوغُس» فتعود بالفساد إلى العدَم. لم يكُنْ لائقاً بالصَّلاحِ الإلهيّ أن تتلاشى كائناتُ أَنشأها، من جرَّى الخداع الذي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يُجربه الشيطان على البشر. وقد يكونُ من المستغرَبِ جدًّا أن يتلاشى الفنّ الذي جعلهُ الله في خلقِ البشر، بإهمالٍ منهم أو بخداع الشياطين. فأمامَ هذه الكائنات العاقلة التي تهلك، وهذه المنجزات الرائعة التي تسير إلى الزوال، ما كان على الله الصّالح أن يفعل؟ أن يسمح للفساد بالتغلّب، وللموت أن يسيطر؟ وما كانت الفائدة في البدء من إحداث هذه الكائنات؟ كان من الأفضل لها أن لا تكون من أن تجد نفسها مُهْمَلة وزائلة بعد إذ كانت. قد يُصار من القول بإهمالِ الله الى القول بضعفهِ لا يصلاحه إذا ترك خليقته تزول بعد إذ خَلَقها، وهذا بنوعٍ خاص لو لم يصنع الإنسان في البدء. فلو لم يَصنَعه لما كان ما يدعو إلى اتّهامه بالضعف، ولكن بما أنّه صنعه ومَنَحه الكينونة والوجود، كان من غير المعقول أن يدَعَ صنائعهُ تزول ولا سيّما تحت نظرِ صانِعها. لم يكن إذن من اللائق أن يُترَكَ البشرُ فريسةً للفساد، بل كان ذلك غير جدير وغير لائقٍ بصلاح الله.

٧ – وكما أنّ ذلك كلّه كان صوابيًّا، كان لا بُدَّ أيضاً من الحفاظِ، من ناحية أُخرى، على مبدأ صدقِ الله في ما سنَّهُ بالنسبة إلى الموت. كان من غير المعقول، في سبيل فائدتنا وبقائنا، أن يظهر الله، أبو الحقيقة كاذبًا. ماذا إذن، وما كان على اللهِ أن يَفعل؟ أن يقتضيَ البشرَ التوبةَ عن معصيتهم؟ قد يبدو ذلك جديراً بالله: فكما انتقل البشر من المعصية إلى الفساد، كذلك يعودون إلى الانتقال من التوبة إلى عدم الفساد. ولكنّ التّوبة لا تفي بما يليق بالله. إنّها تظلّ دائماً على غير حقيقةٍ كاملة إذا لم يخضع البشر لسلطان الموت؛ وعلى كل حال فالتوبة لا تُحرّر من أحوال الطّبيعة، ولكنّها تضع حدًّا للخطايا فقط. فلو كان الأمر موقوفاً على الخطيئة لا على ما يعقبها من فساد،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لكانت التوبة كافية. ولكن ما العمل والمعصيةُ قد سبَقت، والبشرُ قد أصبحوا خاضعين للفساد الناتج عن طبيعتهم، ومجرّدينَ من نعمةِ المماثلةِ لصورة الله؟ هل كانوا بحاجةٍ، لاسترداد هذه النعمة وتحقيق الإصلاح، إلى سوى كلمةِ الله الذي خلق في البدءِ كلَّ شيءٍ من العدم؟ كان له أن يُعيدَ قابلَ الفسادِ إلى غيرِ قابلِ الفساد، وأن يجدَ ما يوافقُ الآبَ في كل شيء. وإذ كان كلمة الله، فوقَ كل شيء، كان وحده قادراً أن يُعيدَ خلقَ كل شيء، أن يتألَّم من أجل جميع البشر، وأن يكون بأسمِ الجميع سفيراً لائقاً لدى الآب.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الثاني

تجسد الكلمة
انتصار على الموت وموهبة عدم الفساد

٨ – ولهذا جاءَ إلى ديارنا كلمةُ الله المنزّهُ عن الجسدِ والفسادِ والمادّة، وإن لم يكُنْ من قبلُ بعيداً عنها؛ إذ لم يَدعْ أيَّ قسمٍ من الخليقةِ خالياً من وجوده، فقد ملأَ كُلَّ شيءٍ في كل مكان، هو الّذي يقيم مع أبيه. وقد تنازلَ وحضر ليُغيثَنا بمحبّتِه وظُهوره. فإذ رأى الجنسَ العاقلَ يَتهاوى، والموتَ يُحكم قبضتَهُ عليه بالفساد، ورأى أنَّ التهديدَ بعدَ المعصية يُبقي على سَوْرة الفساد ويُساورنا كل حين، وأنّه من غير المعقول أن تُلغى هذه الشريعة قبلَ تَطبيقها؛ ورأى من المُستَغْرب أن تنهار أعمالٌ هو أنشأها؛ وإذ شاهد انحرافَ البشر الجارفَ وقد أصبح وبالاً عليهم ولا يجوز التغاضي عنه؛ ورأى خضوعَ جميع البشر للموت؛ وإذ تولّتهُ الشَّفقةُ على جنسنا، وعلى ضعفنا، وتأبّى لنا الفسادَ ولم يقبلْ أن يُسيطرَ الموتُ علينا، وأن يزولَ ما كان موجوداً، وأن يكون عملُ أبيه في سبيل البشر غيرَ ذي جَدْوى، اتّخذ جسداً، جسداً لا يختلف عن جسدنا؛ لأنّه لم يُرِد مجرَّد الوجود في جسد، ولا مجرَّد الظهور؛ ولو أرادَ مجرّدَ الظهور لاختار لظهوره كائناً أقوى؛ ولكنّه اتّخذ جسدنا، ولم يكتفِ باتّخاذهِ جسداً، بل اتّخذه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

من عذراءَ نقيّة وطاهرة، لم تعرف رجلاً؛ اتّخذَ جسداً طاهراً وبعيداً عن أيّ جِماع بشريّ. وإذ كان القدير وإله الكون أنشأ لنفسه في العذراء جسداً كهيكلٍ، اتّخذه أداةً يُعرفُ بها ويَسْكنُ فيها. وإذ اتّخذ هكذا من واحدةٍ منّا جسداً مماثلاً لجسدها، أسلمه إلى الموت من أجل جميع البشر الذين كانوا جميعهم خاضعين لفساد الموت. قدّمه للآب بدافع محبةٍ للبشر لا غير. وإذ كان الجميع يموتون فيه تصبحُ الشريعةُ القاضيةُ بفسادِ البشر باطلة (وذلك نظراً إلى أنّها كانت مطبّقة بكاملها في جسد الربّ، ولم يعد لها من بعدُ أن تنالَ البشرَ أمثالَهُ)؛ ومن ناحيةٍ أُخرى يُعيد إلى عدمِ الفساد البشرَ الذين انجرفوا نحو الفساد؛ فيُحيْيهم بواقعِ موته؛ وبالجسد الذي اتّخذه وبنعمة القيامة يقضي على الموتِ ويجعله كالقشّ في النار.

٩ – كان الكلمةُ يدرك أنّ فسادَ البشر لا تمكن إزالته إلاّ بالموت دون سواه. وكان من غير الممكن أن يموت الكلمةُ الحيّ الأزليّ وابن الآب. ولهذا اتّخذ جسدًا قابلاً الموت حتّى إذا اشترك هذا الجسد في الكلمة الذي هو فوق كل شيء يصبحُ أهلاً لأن يموتَ من أجل الجميع، ويلبثَ غيرَ قابل الفساد بسبب الكلمةِ الحالِّ فيه، فيرفع الفساد عن جميع البشر بنعمة القيامة. وكذبيحة وضحيَّة منزَّهة عن كل وِزْرٍ قرَّب للموتِ الجسدَ الذي اتَّخذَهُ، وبذلك أبعدَ الموت حالاً عن سائر الأجساد الشبيهة به. وهو كلمة اللهِ، والمُتفوّق على الجميع، عندما قرّب هيكلهُ وأداته الجسديّة فديةً عن الجميع، كان يفي بموته الدَّينَ الذي علينا. وعندما اتَّحد ابنُ الله المنزّهُ عن الفساد بجميع البشر، بجسد شبيه بجسدهم، ألبسهم جميعاً عدمَ الفساد، بحسب الوَعْد بالقيامة، فلم يَعد للفساد الذي ينطوي عليه الموت، سلطانٌ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

على البشر، بسبب الكلمةِ الحالِّ فيهم بجسده الخاصّ. عندما يدخلُ ملك عظيمٌ إحدى المدُن الكبرى ويُقيم في أحد مساكنها، تَعُدُّ نفسها جدَّ محظوظةٍ ولا يسطو عليها عدوٌّ ولا لِصّ؛ وتُعَدُّ جديرةً بكل تقديرٍ بسبب الملك الذي يسكنُ واحداً من مساكنها. وكذلك، الأمرُ بالنسبةِ إلى ملك الكون. فعندما قَدِمَ إلى ديارنا وَحلَّ في جسدٍ شبيهٍ بأجسادِنا، توقّفت كلُّ مؤامرةٍ للأعداء على الجنس البشريّ، وتوارى فسادُ الموت الذي طالما اجتاحَهُم. فلو لم يُسارع ابنُ الله، سيّدُ الكون والمخلِّص، إلى نجدة الجنس البشريّ، ووضعِ حدٍّ للموت، لكان الجنسُ البشريّ في طريق الهلاك.

١٠ – كان هذا العملُ العظيم جديراً بصلاحِ الله كلَّ الجدارة. فإذا بنى ملكٌ داراً أو مدينةً وهاجمها لصوصٌ في غفلةٍ من السكّان، لا يتركها سلباً لهم بأيّ حال، بل يدافعُ عنها على أنّها صَنيعتُه الخاصّة، ويؤمّن خلاصها، في غير اكتراثٍ لغفلة السكّان، وذلك حرصاً على شرفه وكرامته. وأَحْرِ بالله، كلمة الآب الكليّ الصلاح أن لا يتغاضى عن الجنس البشريّ، صنيعتهِ التي سقطت في الفساد. فقد محا، بتقدمةِ جسده الخاص، الموتَ الذي كان مُحدِقاً بهم، وأَصْحاهُم من غفلتهم بتعليمه، وأصلح حالة البشر كلّها بقدرته. هذا ما يشهد به لاهوتيّو المخلّص نفسه، ويكفي أن نقرأ كتاباتهم حيث قيل: «لأنّ محبّة المسيح تحثُّنا، إذ نعتبر أنّه، إذا كان واحدٌ قد مات عن الجميع فالجميعُ أيضاً قد ماتوا معه، وأنّه قد مات عن الجميع لكي لا يَحْيا الأحياء لأنفسهم في ما بعدُ، بل للذي ماتَ وقامَ» (٢ كو ٥: ١٤) من بين الأموات، سيّدنا يسوع المسيح. وكذلك: «بَيْدَ أنّ الذي خُفِض عن الملائكة حيناً، يسوعَ، الذي نراهُ مكلَّلاً بالمجد

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

والكرامة، لكونه قد قاسى ألمَ الموت حتّى يكونَ الموتُ الذي قاساهُ مفيداً لكلّ أحدٍ بنعمة الله» (عب ٦ : ٩). وبعد ذلك إيضاحٌ للسَّبب الذي من أجله كان لا بُدّ لكلمة الله، دون سواه، أن يتجسّد: «أجل لقد كان لائقاً بالذي كل شيءٍ لأجله، وكلُّ شيءٍ به، المُورِدِ إلى المجد أبناءً كثيرين، أن يجعلَ من يقودهم إلى الخلاص، بالآلام كاملاً.» (عب ٢ : ١٠) هذا يعني أنّه لم يكن لغير الكلمة الذي صَنعَ البشر في البدء أن يُنهضهم من الفساد الطارئ. أمّا أن يكون الكلمة نفسُه قد اتّخذ جسداً للتضحية في سبيل أجسادٍ شبيهةٍ به فالكتابة المقدّسة تبيّن ذلك كما يلي: «وإذن فيما أنّ الأولاد مشتركون في الدم واللحم، اشترك هو كذلك فيهما، لكي يُبيدَ بالموت من كان له سلطانُ الموت، أعني إبليس، ويُعتق أولئك الذين كانوا، الحياةَ كلَّها، خاضعين للعبوديّة خوفاً من الموت» (عب ٢ : ١٤ – ١٥)؛ فبذبيحة جسده الخاص وضع حدًّا للشريعة المُصَوَّبة علينا، وجدّد لنا مبدأ الحياة، باثًّا فينا رجاء القيامة. وهكذا، فإذا كان الموتُ قد سيطرَ بالبشر على البشر، فبتجسُّدِ كلمةِ الله جرى تدميرُ الموت، وقيامةُ الحياة، كما يقول ذلك حامل المسيح: «لأنّه، بما أنّ الموتَ كان بإنسان، فبإنسانٍ أيضاً قيامةُ الأموات. فكما أنّه في آدمَ يموتُ الجميع، كذلك أيضاً في المسيح سيحيا الجميع» (١كو ١٥ : ٢٢ – ٤٢) فنحن الآنَ لا نموتُ كمحكومٍ عليهم، بل كمن يُوقظون في ترقّبٍ للقيامة العامّة التي سيُبْديها لنا الله في أوانِها اللهُ (١تيم ٦ : ١٥) الذي أَقرَّ هذه القيامة وأنعمَ علينا بها. ذلك هو السبب الأوّل لتجسُّد المخلِّص، ولكن سندرك أيضاً ما حملهُ على المجيء الينا بما يلي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الثالث

تجسد الكلمة على أنّه إصلاح للصورة في الإنسان وموهبة المعرفة الفائقة الطّبيعة

١١ – عندما صنعَ الله، سيّدُ الكون، الجنسَ البشريّ بكلمتهِ، أدرك جيّداً ما في طبيعة البشر من ضعف، وأنّها قاصرةٌ عن معرفةِ الله بوسائلها الخاصّة، وعاجزةٌ عن أن يكونَ لها أيُّ تَصوّرٍ في شأن الله، بما أنّه اللامخلوق، والأشياء كلّها صادرةٌ عن عدَم؛ وهو المنزّهُ عن الجسد فيما أنّ البشرَ على هذه الأرض كُوّنوا من جسَد؛ وخلاصةُ القول أنّ قُصورَ الخلائقِ كبيرٌ في موضوع إدراكِ الخالقِ ومعرفته. فحَنا على الجنس البشري بعطفه ورحمته، وبدافع صلاحه لم يدع البشر خَالينَ من معرفته لئلاَّ يصبحَ وجودهم أيضاً بغير جدوى. فأيُّ فائدةٍ في أن يخلقَ الإنسانُ اذا لم يعرف خالقه؟ أو كيف يمكن أن يكونَ البشر «لوغسيّين» إذا لم يعرفوا «لوغُس» الآب الذي به كانوا؟ إذن لما امتازوا في شيء عن الكائنات غير العاقلة، لو لم تمتدَّ معرفتهم إلاّ إلى الأَشياء الأَرضيّة. وفيمَ خلقهم الله لو لم يُرِدْ أن يكون معروفاً لَدَيْهم؟ ولكي لا يحدث ذلك أشركهم بصلاحِه في صورتِه الخاصّة، سيّدِنا يسوعَ المسيح؛ لقد خلقَهم على صورته ومثالِه. وبمثل هذا الإنعام يمكنهم أن يعرفوا الصورة، أعني كلمةَ الآب. ويمكنهم به أن يكوّنوا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لهم تصوُّراً للآب؛ فإذا عرفوا الخالق عاشوا عيشةَ سعادةٍ حقيقيّة. ونكرّر القول بأنّ البشر في حماقتهم ازدرَوا الموهبةَ التي مُنحِوها؛ فتحوّلوا عن الله ودنّسوا نفسَهُم إلى حدٍّ أنّهم لم يقتصروا على نسيان فكرة الله، بل أقاموا في مكانه شتاتاً من الآلهة. لقد نصّبوا الأصنام في مكان الحقيقة؛ وآثَرُوا العدَم على الله الكائن، خادمين الخليقة دونَ الخالق؛ والأقبحُ من ذلك أنّهم حوّلوا عبادةَ الله إلى أصنامٍ من خشبٍ أو من حديد، أو من أيِّ مادّةٍ أُخرى، وإلى بشرٍ أيضاً، ولم يتوقّفوا عند هذا الحدِّ، كما سبقَ القولُ، بل أوغلَوا في الكفر الى حدٍّ أنّهم أدَّوا العبادةَ الى الشياطين ودَعَوْهم آلهةً، مُحقّقين رغَباتِهم. وقرّبوا، في سبيل إرضائهم، ذبائح حيوانيّة وبشريّة، كما ذكرنا ذلك آنفاً، وأسلموا أنفسهم لقيودهم أكثرَ فأكثرَ تحت وخزاتِ مناخسِهم. وعلى كلّ حال كانت نُظُم السِحر تُلقَّن عندهم، وكانت العرافَةُ مزلقةً للناس في بعض الأماكن؛ كان، الجميع يجعلون الكواكب وسائر والأجرام العلويّة علّةً لمصدرهم ووجودهم، لا يَعبأون بغير الظواهر. وخلاصة القول أنّ كلّ شيء كان يعيقُ بالكفرِ والعداء. واللهُ وكلمتُه وحدهما كانا مجهولَيْن، مع أنّه لم يَنحجبّ متخفّياً عن البشر، ولم يقدّم لهم مُكنةً واحدة لمعرفته، بل إمكانات متعدّدة ومُختلفة.

١٢ – إنّ نعمةَ الكينونة على صورة الله كانت كافيةً في ذاتها لمعرفةِ الله الكلمة، وبه معرفةِ الآب. ولكنّ اللهَ الذي أدرك ضعفَ البشر، راعى أيضاً غَفْلَتهم، بحيث إنّهم لو غَفَلوا عن اكتشافه بأنفُسهم، قد يعجزون عن معرفة الخالق عن طريق عملِ خَلقِهِ. وإذ كانت غفلةُ البشر تتحدّر شيئاً فشيئاً الى أحطِّ درك، بادرَ اللهُ إلى تدارُكِ ضعفهم هذا أيضاً بأن أرسلَ إليهم ناموساً وأنبياء تَسهلُ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

معرفتُهم، حتّى إذا تردّدوا في رفع أَعيُنهم الى السَّماء والتعرُّف بصانعهم، كان في حَوزتهم تعليمٌ قريبٌ منهم. وإنّه من الأيسر والأقرب أن يتلقّى البشرُ التعليمَ من بشرٍ آخرين في الأمور الأشدِّ أهمّيةً. كان بإمكانهم، وهم يرفعون أنظارهم نحو عظمة السّماء، ويتأمّلون في تناسقِ الخليقة، أن يعرفوا سيّدها الأعلى، كلمةَ الآب، الذي، بعنايته الشاملة، يعرّفُ الجميعَ بالآب، والذي يُحرِّك الكونَ لكي يعرفَ الجميعُ به الله. ولئن كره ذلك تهاونُهم، كان من اليسير أن يَلقوا القدّيسين ويَلْقنوا منهم من هو خالق الكون، أبو المسيح، وأنّ عبادة الأوثان كفرٌ، وانتهاك كاملٌ للمقدَّسات. وكان بإمكانهم أيضاً، وقد عرفوا الناموس، أن يتجنّبوا كلَّ مُخالفة، ويَحْيَوْا حياةً فاضلة؛ لأنّ الناموسَ ليس لليهود وحدهم، والأنبياءُ لم يُرسَلوا إلى اليهود وحدهم، ولم يضطهدهم اليهودُ وحدهم؛ كانوا للأرضِ كلّها مدرسةً مقدّسة لمعرفة الله والحياة الرُّوحيّة. كان صلاحُ الله ومحبَّته للبشر عظيمين جدًّا، ولكنَّ البشر، وقد تغلَّبت عليهم مُتع الحياةِ الحاضرة، ووَسوَساتُ الشياطين وخدائعُهم، لم يميلوا نحو الحقيقة، بل ازدادوا إيغالاً في الشرور والآثام، بحيث فقدوا ميزتَهم العاقلة، وأظهرتهم أخلاقُهم السّيّئة أشبَه بكائناتٍ لا عقلَ لها.

١٣ – وإذ كان البشرُ قد تخلَّقوا بأخلاق الحمق بحيثُ إنّ خُدعةَ الشياطين أَلقت بظلّها على كل ناحية، وحجبَت معرفةَ الإله الحقيقي، فماذا كان على الله أن يفعل؟ السكوت على مثل هذه الحالة، وقبول أن تغوي الشياطين البشرَ فيَجهلوا الله؟ ولكن ما الفائدة من أن يكونَ الإنسانُ قد وُجِد في البدءِ على صورة الله؟ كان الأجدر به أن يُخلقَ بلا عقل؛ وإن كان لا بُدّ له من العقل، كان من الضروريّ أن يحملَه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

على العيش عيشةَ الكائناتِ العاقلة. ولكن لماذا أعطاهُ في البدء فكرةَ الله؟ إذا لم يَعُدْ أهلاً لتقبّلها الآن، فما كان من اللازم مَنْحُه إيّاها في البدء. ولكن هل يحسنُ بالله الخالق، وهل يليق بمجده، أن يرى أُناساً خلقهم وهم لا يعبدونه، بل يذهبون إلى أنّ غيره خلقهم؟ وهكذا رأى اللهُ أنّه خلقَ البشرَ لغيرهِ لا له. وإلى ذلك فما من ملك، وإن بشراً، يَسْمح بأن يُخضع آخرون مُدُناً أنشأها وراحت تطلبُ ملجأً عند غيره. إنّه يُرسلُ إليها رسائل تحذير، وكثيراً ما يبعث إليها رسُلاً أصدقاء، وإن دعتِ الحاجة يمضي إليها هو نفسه علّه يُحرّك شعورَها بحضوره؛ كلّ ذلك لكي يُجنِّبَها الخضوعَ لأسيادٍ آخَرين، ولكي لا تصبحَ صنيعتُه غيرَ ذاتِ جدوى. فكم بالأحرى سيعملُ الله على تجنيب خلائقِه أن تضلَّ بعيداً عنه، وأن تخضعَ للعدم؛ ولا سيّما إذا أصبح هذا الضَياع سببَ هلاكهم، هم الذين سبقوا واشتركُوا في صورة الله، وكان من الضروريّ ألاّ يهلكوا. ماذا كان على الله إذن أن يفعل؟ نَعم ما العمل، بسوى أن يُعادَ تكوينهم على حسب الصورة، حتّى يتمكّن البشر بذلك من العودة الى معرفته؟ وكيف يكون ذلك بسوى حضور صورةِ الله نفسها، سيّدنا يسوع المسيح؟ هذا لم يكن باستطاعةِ البشر أن يقوموا به، لأنّهم هم أيضاً صُنِعوا على الصورة؛ ولم يكن ذلك باستطاعة الملائكة لأنّهم ليسوا صُوراً. فأتى كلمةُ الله نفسُه، وهو القادر، بكونه صورة الآب، على أن يُعيد كينونة البشر على الصورة. وهذا ما كان ليحدُث لو لم يتحقّق القضاءُ على الموت وعلى الفساد. فهلك جسدٌ مائت لِيُقضَى به على الموت ويُعادَ البشرُ المصنوعينَ على الصورة.

١٤ – عندما يمَّحي رسمٌ مرسومٌ على الخشبِ بسبب أقذار

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الخارج لا بُدّ من وجود صاحب الرسم الذي كان مرسوماً عليه، لكي يمكن تجديدُ الصورة على المادّة نفسها. فلا يُرمى بالرسم ولا بالمادة التي عليها رُسِم، بل يُعاد رسمُه عليها. هكذا فعل ابن الآب القدّوس، على أنّه صورةُ الآب، أتى الى ديارنا، ليجدّد الإنسان المصنوع أصلاً على صورته، ويجدَهُ، بعدَ ضلاله، بمغفرةِ خطاياه، كما يقول هو نفسُه في الأناجيل: «إنّ ابن البشر جاء، ليطلب ما قد هلك» (لو ١٩: ١٠)؛ وكذلك قال لليهود: «ما لم يُولَد...» (يو ٣: ٥)، غير مُشيرٍ إلى الولادة من حشا المرأة، كما توهّموه هم، بل إلى الولادةِ الجديدة، وإعادةِ خلق النفس على الصُّورة. وبما أنّ جنونَ الوثنيَّةِ والكفرِ كان يجتاحُ الأرض كلّها، وكانت معرفةُ الله محجوبة، فإلى من يعودُ تثقيفُ الأرض بحقيقة الآب؛ قد يُقال: إلى إنسان. ولكن ليس في مُكنة إنسان من البشر أن يطوفَ في كل الأرضِ التي تحتَ الشمس، وليسَ له من القوّة ما يمكنه من الانتقال إلى كلّ مكان، ومن الإقناع بما يعتقد، كما ليس له الكفاية في ذاته لمقاومة خُدَع الشياطين وإيهاماتهم. وإذ كان الجميع مصعوقين وقلقين في نفوسهم بسبب الخُدعة الشيطانيّة وزهوةِ الأوثان، كيف كان بإمكان بشرٍ أن يُغيّروا نفوسَ الناس وأرواحَهم، وهم غير قادرين على رؤيتهم، وكيف يُهدى مَن لا يرى؟ قد يُقال إنّ الخلقَ كان كافياً. ولكن لو كفى عملُ الخلْق لمَا فشَتِ الشُّرورُ مثلَ هذا الفُشُوِّ. أجل، لقد جرى الخَلْقُ وظلَّ البشرُ يتمرَّغون في ضلالهم بالنسبة إلى الله. فإلى من سوى كلمةِ الله كانت الحاجة الماسّة، كلمة الله الذي يَرى النفس والروح، ويحرّكُ جميع كائنات الخليقة، وبها يعرّف بالآب؟ إليه، هو الذي بعنايته الخاصّة، وبالنظام الذي يشمل به الكون يُعلّم موضوعَ الآب،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

إليه يرجع أن يُجدّدَ هذا التعليم. وكيف يكون ذلك؟ قد يُقال إنّه من الممكن القيامُ به بالوسائل نفسها، أي بالعودة الى الاستدلال على ما هو من شأنِ الله باستنطاقِ أعمال الخليقة. ولكنّ ذلك لم يكن بالأمر الثابت أيضاً. لم يكنه بتاتاً! لأنّ البشر كانوا قد تغافلوا عن ذلك في ما سلَف، وحوّلوا أنظارهم من الأعلى الى الأسفل. وإذ كان مصمّماً على إغاثةِ البشر، ظهرَ إنساناً، مُتّخذًا جسداً شبيهاً بأجساد البشر، ومن هنا، أي من خلال الأعمال الجسديّة، توخّى من الذين تعاموا عن معرفته في عنايته وسيطرته الشاملتينِ، أن يعرفوا بأعمال هذا الجسد الله الكلمةَ في الجسد، وأن يعرفوا به الآب.

١٥ – وكما يهتمُّ الأستاذُ الصَّالحُ لتلاميذهِ، وينزل في تدريسه مع من لا يستوعبون الدروسَ الصَّعبة الى مستواهم، فيعالجهم بأساليب أكثر سهولة، هكذا يفعل كلمة الله، على حدّ قول القدّيس بولس: «فإذ إنّ العالم، بحكمتهِ، لم يعرف الله في حكمةِ الله، حسن لدى الله أن يُخلِّصَ المؤمنين» (١كو ١: ٢١). فإذ تحوَّل البشرُ عن التأمُّل في الله، وغرقوا في مَهْواةٍ، شاخصين بأَعينهم إلى الأَسافل، باحثينَ عن الله في الخليقةِ وفي المحسوسات، ونصبوا أنفسهم آلهةً وهم بشر مائتون وشياطين، ولهذا اتّخذ كلمةُ الله، صديقُ البشر، ومخلّصُ الجميع، جسداً، وعاش إنساناً بين البشر، وحوّل إليه حواسَّ جميع البشر. وهكذا فالذين كانوا يتمثّلون اللهَ في كائناتٍ جسمانيّة، يُدركون الحقيقة من الأعمال التي يعملها الربُّ في الجسد، وبهِ يعرفون الآب. وإذ كانوا بَشراً غيرَ فاكرين إلاّ في الأُمور البشريّة، وكانوا حيثما توجّهوا بحواسّهم يَلقون ما يجذبهم، فيُدركون الحقيقة في كل مكان؛ فإنّهم كانوا إمَّا غارقينَ في ذهولٍ مقدَّس أمام الخليقة، ولكنَّهم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كانوا يجدونها تعترف بالمسيح الربّ، وإمّا مُندفعينَ بتفكيرهم نحو البشر بحيثُ جعلوهم آلهة، ولكنّهم إذا قارنوهم بالمُخلّص وأعماله وجدوا أنّ المخلّصَ وحدهُ بين البشر هو ابنُ الله، وأن لا شيء مما يعملُه البشر يَعدلُ ما يعمله كلمةُ الله. وكانوا على يقظة بالنسبة إلى الشياطين، ولكنّهم عندما رأوا الربَّ يطردهم اكتشفوا أنّه هو كلمة الله، وأنّ الشياطين ليسوا آلهة. وإن كانت فكرةُ الموتى تحتلّ عقولهم، بحيثُ إنّهم كانوا يؤدّون التكريم ونوعاً من العبادة للأبطال وإلى أولئك الذين كان الشعراء يدعونهم آلهة، فإنّهم عند مشاهدتهم قيامةَ المخلّص يعترفون بأنّ تلك الأعمال كانت إفكاً وبهتاناً، وأنّ الربّ الحقيقي الوحيد هو كلمة الآب، الذي هو ربّ الموتِ أيضاً. لهذا السّبب وُلِدَ، وظهرَ إنساناً، وماتَ، وقام مُعْشّياً بأعمالهِ الخاصّة كل ما قام به البشرُ من أعمال، حتّى يردَّ البشر، من أيّ مكانٍ انجرّوا إليه، ويُعلّمهم أمورَ أبيه الحقيقيّ، كما يقول هو بنفسه: «إنّ ابن البشر قد جاء ليطلبَ ما قد هلك ويُخلّصه» (لو ١٩: ١).

١٦ – عندما سقط تفكير البشر في المحسوس تنازل الكلمة وظهر في جسد، حتّى يركّز عليه البشر بكونه إنساناً، ويوجّه إليه حواسَّهم؛ إنّهم سيرونه منذُ الآن إنساناً، وسيرونه في أعماله أكثرَ من إنسان، سيرونه الله، كلمة الله وحكمته. هذا ما أشار إليه بولس بقوله: «حتّى إذا تأصَّلتم في المحبّة، وتأسَّسْتم عليها، تستطيعون مع جميع القدّيسين أن تُدركوا من محبّة المسيح ما العرضُ والطّول والعُلوّ والعمق، وأن تدركوا تلك المحبّة التي تفوق كلّ إدراك، فتمتلئُوا هكذا من كلّ مِلء الله.» (أف ٣: ١٧ – ١٩). فالكلمة ينتشرُ في كلّ اتّجاه، في العلوّ، والأسفل، والعُمْق، والعرض، في العلوّ نحو الخليقة، وفي الأسفل نحو

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

التّجسُّد، وفي العمق نحو الجحيم، وفي العرض نحو العالم؛ فكل شيءٍ مملوءٌ من معرفة الله. ولهذا لم يقرّب ذبيحتَهُ لأجل الجميع منذُ مجيئه، مسلماً جسدَهُ للموت. ومُقيماً له، بحيث يمرُّ على الأرض خفيًّا، ولكنّه ظهرَ مرئيًّا بهذا الجسد، وأقامَ فيه عاملاً ومقدّماً آياتٍ تدلُّ عليه، لا كإنسانٍ بل كإله كلمة. من الناحيتَيْنِ أظهر المخلّصُ بتجسُّده محبته للبشر: من ناحية أمات الموت عندنا وجَدَّدنا؛ ومن ناحيةٍ أُخرى عندما كان غيرَ ظاهرٍ وخَفيًّا، كان يَظْهر في أعماله، ويُشير إلى أنّه كلمةُ الآب، وسيّد الكونِ ومليكُهُ.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الرابع

قيمة تجسدِ الكلمة الخلاصية

اتّحاد اللُّوغس بالجسدِ البشريّ

١٧ – وهكذا لم يكن محصوراً في الجسد؛ لم يكن في الجسدِ دون سواه؛ لم يُعطِ الجسدَ الحركة ويدَع الكون محروماً من قدرته وعنايته. ولكن، ويا للعجب! لم يكن، وهو الكلمة، ليحويَهُ أيٌّ من الكائنات، بل كان يحوي هو نفسُهُ كلَّ شيء. وهكذا كان حاضِراً في الخليقة كلّها، وكان خارجاً بجوهره عن كل شيء، ولكنّه كان بقدرته في كل شيء، مُنظِّماً كلَّ شيء وباسطاً عنايتَهُ على كل شيء، مُحيياً كلَّ كائنٍ وجميعَ الكائنات معاً، حاوياً الكون من غير أن يحويَهُ الكون، وهو مقيمٌ في أبيه الوحيد كاملاً ومن جميع الوجوه. وكذلك كان في الجسد البشريّ محيياً ذلك الجسد، ومحيياً كذلك جميع الكائنات. كان في الكل وخارجاً عن الكل، كاشفاً عن ذاته بأعماله في الجسد، ولم يكن أقلَّ ظهوراً بقدرته في الكون. وإنّه لَعَملُ النّفس أن تعالجَ بتفكيرها ما كان خارجاً عن جسدها، ولكن لا أن تعمَل خارجاً عن جسدها، ولا أن تحرِّك بحضورها ما كان بعيداً عن ذلك الجسد. وعلى كل حال فما من أحدٍ ينظر الى ما هو بعيدٌ عنه ويستطيع أن يُحرّكَه أو ينقلَه من مكانه؛ فإذا جلسَ أحدٌ أمامَ دارهِ وتأمّل

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفلك لا يستطيع أن يُحرّك الشمسَ ولا أن يُدوّر السماء؛ إنّه يرى حركتها ووجودهما ولكنّه يعجز عن إحداثها. لم يكن كلمةُ الله كذلك في الإنسان. لم يكن مقيَّداً بالجسد، بل كان يُهَيْمن عليه، بحيثُ كان، في آنٍ واحد، في الجسد وفي جميع الكائنات، وكان خارجاً عنها جميعاً، ولا يستريحُ إلاَّ في الآب. والأعجب من ذلك كلّه أنّه كان يعيش كإنسان، وأنّه ككلمة، كان يُخرج جميع الكائنات الى الحياة، وكأبنٍ كان مع الآب. وهكذا عندما ولدَتْهُ العذراء لم تَشُبْهُ أيُّ شائبة، وعندما اتّخذ الجسَد لم يلحق به أيُّ فساد، بل إنّه قدّس الجسدَ أيضاً. وإذ كان موجوداً في الكون لم يُشارك جميع الكائنات في ما لَها، ولكنّها هي بالحَري التي نالت منه حياةً وغذاءً. عندما تدور الشمسُ، التي خلقها وأمتعَ بها نواظرنا، في السماءِ العالية، لا ينالُها فسادٌ بمُلامسة الأجسام الأرضيّة، ولا تُودي بها الظُّلمات، بل إنّها تُنير هذه الكائنات وتظهِّرها؛ وهكذا كان شأنُ كلمةِ الله القدّوس، الذي هو أيضاً صانعُ الشمس وسيّدها، لم يَنَلْه فسادٌ من الجسد الذي عُرِف به، بل عملَ، هو الذي لا يقبل فساداً، على إحياءِ الجسد المائت وتطهيره، وهو الذي قيل عنه إنّه «لم يقترفْ قطّ خطيئة، ولا وُجِدَ في فيه مكرٌ» (١بط ٢: ٢٢)

١٨ – فعندما يفسِّر اللاهوتيّون، في شأنه، أنّه أكل وشرب، وأنّه وُلِد، اعلَمْ أنّ الجسد، في كونه جسداً، هو الذي وُلِد واغتذى بالأطعمة الملائمة، وأمّا الله الكلمة المتّحد بالجسد فكان ينظّم الكون كلَّه، وبالأعمال التي كان يعملها في الجسد كان يُعرّف بنفسه على أنّه الله الكلمة لا على أنّه إنسان. ومع ذلك فإليه كان يُنسَبُ ذلك، لأنّ الجسد الذي كان يأكل، والذي وُلد وتألَّم لم يكن جسَدَ آخَر، بل

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

جسدَ الربّ؛ وبما أنّه صارَ إنساناً كان من اللائق أن يُنسَب ذلك كلّه إليه كإنسان، لكي يظهر جسدُه جسداً حقيقيًّا لا صورة جسد. وكما أنّه عُرف إنساناً بحضوره الجسديّ، كذلك عُرِف بالأعمال التي كان يعملها بجسدهِ على أنّه ابن الله. وقد صاح باليهود القليلي الايمان قائلاً: «إن كنتُ لا أعملُ أعمالَ أبي فلا تُصدّقوني، ولكن إن كنتُ أعملُها، ولا تُريدون أن تصدّقوني، فصدّقوا هذه الأعمال، لكي تعلموا وتعترفوا أنّ الآبَ فيَّ وأني أنا في الآب» (يو ١٠: ٣٧ – ٣٨). وكما أنّه وهو غير مَرْئيّ يُعرفُ من أعمالِ الخلق، كذلك وهو إنسان ومحجوبٌ في الجسد عن الأنظار، يعرفُ بأعماله أنّه ليس إنساناً، ولكنّه القدرة كلمة الله هو الذي يعملها. فأن يأمرَ الشياطين ويطردَها ليس عملاً بشريًّا، بل هو عملٌ إلهيّ. وكيف نعدُّه إنساناً لا إلهاً ونحن نراهُ يشفي من الأمراض التي تُلِمُّ بالجنسِ البشريّ؟ كان يُطهِّر البُرْصَ، ويُمشّي العُرْج، ويَفتح آذانَ الصُّمّ، وعيونَ العُميان؛ وبوجيز القول كان يطردُ عن البشر جميع الأمراض والعاهات، وكان باستطاعة كل إنسان أن يتأمّل أُلوهته. وعند رؤيته يردّ الى الإنسان ما كان ناقصاً فيه منذُ ولادته، ويفتح عينَي المولودِ أعمى، مَن لا يُدركُ أنّ ولادةَ البشر كانت خاضعةً له، وأنّه الإله والخالق؟ إنّ الذي يُعيد الى إنسان ما كان ناقصاً فيه منذ ولادته هو، بغير شك، ربُّ تناسُلِ البشر نفسه. لذلك نراهُ، عندما ينزلُ إلينا، يكوِّن لنفسه جسداً مولوداً من عذراء، ليقدّمَ للجميع برهاناً قيّماً على أُلوهته، لأنّ الذي كوَّن هذا الجسد هو أيضاً مكوّنُ الأجساد الأُخرى. فلدى رؤيةِ هذا الجسد المُنحدِر من عذراء، في غير مخالطةِ رجل، مَن لا يحكم بأن هذا الذي يظهر في هذا الجسد هو أيضاً صانعُ سائر الأجساد وربُّها؟

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ولدى رؤية جوهر الماءِ مُغيّراً ومحوّلاً الى خمر، كيف لا يُعَدُّ القائمُ بهذا العمل ربَّ جوهرِ المياه وخالقه؟ ولهذا مشى سيّداً على البحر وتجوّل عليه وكأنّه على اليابسة، مُقدِّماً لشهودِ العيان برهاناً على سيطرته الشامِلة. وعندما يبعض الطّعام يُغذّي جمهوراً غفيراً، وينقلهُ من العِوَز الى البحبوحة، بحيثُ إنّه بخمسة أرغفةٍ من الخبز أشبع خمسة آلافٍ وبقي من الخبز ما يعدِلُ المأكولَ منه، وقد أظهر بذلك أنّه ربُّ العناية الشاملة.

١٩ – كان ينبغي، على ما يبدو، أن يقوم المخلّص بكل هذه الأعمال، لكي يعودَ البشرُ، وقد تجاهلوا عنايتَهُ بجميع الكائنات، ولم يُدركوا ألوهتهُ في الخليقة، ويفتحوا أعينَهم على أعماله بالجسد، ويكون لهم من ذلك طريق الى معرفة الآب، مُرْتقين، كما قلت، من أعمالٍ جزئيّة، إلى عنايته الشاملة. فلدى رُؤية سلطته على الشياطين، أو لدى رُؤية الشياطين يعترفون بأنّه ربُّهم، من يساورهُ بعدُ شكّ، ويتساءل هل هو في الحقيقة ابن الله، وحكمتهُ وقدرته؟ وإنّه لم يَدَعِ الخليقةَ نفسَها في صمتٍ، ولكن، ويا للعجب، جرى إبّانَ موته نفسه، وبكلام أصحّ، جري بعلامة انتصاره على الموت، أعني الصّليب، أنّ الخليقة كلّها اعترفت بأنّ الذي يكشف عن ذاته ويتألّم في الجسد، ليس إنساناً وحسب، بل هو ابن الله ومخلّص الجميع. لقد انحجبت الشمس، وتزلزلتِ الأرض، وتشقّقتِ الجبال، وسيطر الهَلَعُ على الجميع. ولكنّ هذه الأعاجيب كانت تدلُّ على أنّ الذي على الصّليب هو المسيح الإله، وأنّ الخليقةَ كلّها خادمةٌ له، وأنّها كانت تدلُّ بهَلَعِها على حضورِ السيّد. هكذا ظهر الله الكلمة نفسُ للبشر بأعماله. وما يلي من هذا العرض سيتناولُ نهاية حياته وأعماله

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الجسديّة ويُـبيّن كيف كان موتُ الجسد؛ وفي هذا عماد إيماننا، والجميع لا يكفّون عن الكلام عليه. وهكذا تعلَم أنّ المسيح، بهذا أيضاً، يكشف عن كونه ابن الله.

ذبيحة الصليب

٢٠ – لقد عرضنا جُزْئيًّا لسبب ظهوره بالجسد ولطبيعة هذا الظُّهور، وذلك بقدر ما كان باستطاعتنا إدراكه: فليس لأحدٍ سوى المخلِّص أن يُعيدَ الفاسِدَ إلى عدم الفساد، لأنّه هو الذي صنَع كلَّ شيءٍ في البدء من العدَم. ولم يكن لأحدٍ سوى صورة الآب، أن يُعيد خلقَ الكينونة على الصُّورة عند البشر؛ وسوى الحياة في ذاته، وسيّدنا يسوع المسيح، أن يجعلَ الكائنَ المائِت غيرَ مائتٍ؛ وسوى الكلمة الذي نظّم كل شيء، أن يُعلّم أمورَ الآب ويحطِّمَ عبادةَ الأوثان وهو ابنُ الآب الوحيد والحقيقيّ. ولكن بقي تسديد الديون عن الجميع – إذ كان لا بُدّ له من الموت، وكان ذلك، كما قلتُ، سبب مجيئه الرئيسي –؛ فبعدما قدّمَ بأعماله البراهينَ على أُلوهتِهِ، قرّب أخيراً الذّبيحةَ من أجل الجميع، مُسْلِماً هيكله للموت باسم الجميع (ر عب ٩: ١٢، ٢٤)، لكي ينتشلهم ويُنْقِذهم جميعاً من المَعصية القديمة (رؤ ١٢: ٩)؛ ويظْهرَ أقوى من الموتِ نفسِه، مُبرزاً جسدَهُ الغيرَ قابلِ الفساد باكورة للقيامة العامّة.

ولا تَعجَبينَّ من كَوْننا نُكرِر غالباً الكلامَ على الأحداث نفسها. فإذ نتكلّم على صلاح الله، نعبّر عن الفكرة الواحدة بألفاظٍ كثيرة خشيّة أن يفوتنا شيءٌ أو أن نُلامَ على تقصيرٍ في الشرح. وإنّه لَمِن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الأفضل أن نُلام على تكرار الأُمور نفسها من أن نُلامَ على إغفالِ ما لا يجوزُ إغفالهُ.

فالجسدُ إذن كان من جميع الوجوه، كسائر الأجسام، كان جسداً بشريًّا وإنّه وإن صدَر بمعجزةٍ جديدةٍ من عذراءَ لا غيرُ، فقد كان مع ذلك مائتاً، وقد مات وفقَ ما كان مُحتمًا على أشباهه. ولكن بسبب اتّحادهِ بالكلمة لم ينلهُ الفساد على نظام طبيعته. بسُكْنى كلمة الله فيه أصبح منزّهاً عن الفساد. وهذا المُعجزُ المزدوج جرى في الكائن الواحد: موت الجميع تَمَّ في جسد الربّ، والموتُ والفسادُ قُهرا بسبب اتّحاد الكلمة بهذا الجسَد. كان الموت محتوماً، وكان لا بدَّ للجميع منه تسديداً للجزاء المفروض على الجميع. وإذ كان الكلمة، كما قلت، لم يكن قابلاً الموت، لكونه غير مائت، اتّخذ لنفسه جسداً قابلاً الموت، لكي يقرّبه باسم الجميع، وتألّم هو نفسُه عن الجميع عندما اتّحد بهذا الجسد، «لكي يُبيدَ بالموتِ من كان له سلطانَ المَوْتِ، أعني إبليس، ويُعتِق أولئك الذين كانوا، الحياةَ كلَّها، خاضعين للعبوديّة خوفاً من الموت» (عب ٢: ١٤ – ١٥).

٢١ – بما أنّ مُخلِّص الجميع مات من أجلنا فنحن، مؤمني المسيح، لن نموتَ من بعدُ كما كانوا يموتون قديماً بحسب تهديد الشريعة. فقد أُلغيَ هذا الحكمُ. أمّا الفسادُ فقد توقَّف وتوارَى بنعمة القيامة؛ سننحلُّ من الآنَ فصاعداً بحسب ما يعتري جسَدنا من حالة الموت، وللمُدّةِ التي حدّدها الله لكلّ واحدٍ منّا، حتّى نستطيع الحصول على قيامةٍ أفضل. وكبذار أُلقيت في الأرض، لا نهلك في الانحلال، ولكنّنا بُذِرنا لكي نقوم، إذ إنّ الموت قد أُبطِلَ بنعمةِ المخلِّص. ولهذا السبب يُعلن الطوباويّ بولسَ وقد أصبحَ لدى الجميع

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ضامنَ القيامة: «لا بُدَّ لهذا الجسد الفاسد أن يلبسَ عدمَ الفساد، ولهذا الجسد المائت أن يلبسَ عدمَ الموت. ومتى لبس هذا الجسدُ الفاسدُ عدمَ الفساد، ولبس هذا الجسدُ المائت عدمَ الموت، يتمُّ العدلُ الذي كُتب: لقد ابتُلِعَ الموتُ في الغَلَبة. أين غلبتُكَ أيها الموت؟ أينَ شوكتُك أيَّها الموت؟»

وقد يُقال: إذا كان مُزمعاً أن يُسْلِم الجسدَ للموت من أجل الجميع فلماذا لم ينطلق منه كسائر البشر، بل ذهب به الى الصَّلب؟ فقد كان من الأجدرِ به أن يُلقيَ بجسدهِ في كرامة، ولا يدعه عرضةً لمهانةِ مثل هذا الموت. أعِدِ النّظر في هذا الاعتراض تجدهُ جدَّ بشريّ؛ فما جرى للمخلّص كان في الحقيقة إلهيًّا وجديراً بألوهته لعدّة أسباب. أوّلاً لأنّ الموتَ الذي ينالُ البشرَ ينالُهم لضعفٍ في طبيعتهم؛ فهم لا يستطيعون البقاءَ طويلاً، وهم مع الزّمن يتهاوَوْن. وقد تنتابهم الأمراض فيفقدون مناعتهم ويموتون. ولكنّ الربّ ليس ضعيفاً، فهو قدرةُ الله، وكلمة الله، والحياة في ذاتها. فلو ألقى بجسدِهِ مُنفرداً، وعلى سرير، على طريقة البشر، لَظُنَّ أنّه يُعاني ذلك لضعفٍ في طبيعته، وأنّه لا يتفوّق على سائر البشر في شيء. ولكن بما أنّه الحياةُ وكلمةُ الله، وأنّه كان مزمعاً أن يموتَ عن الجميع، فقد قوّى الجسدَ من جهة بما أنّه الحياةُ والقدرة؛ ولكنّه من جهة ثانية تدبّرَ أمرَ موته، إذ كان الموتُ آتياً لا محالة، وجعلَ آخرين يُتموّن الذبيحة ولم يكن من اللائق أن يمرَضَ الربّ، هو الذي كان يشفي المرضَى من أمراضهم؛ ولم يكن يحسن بجسده أن يفقد قواه، إذ كان به يُنشِّط الآخرين في ضعفهم. لماذا لم يَعتصم من الموت كما اعتصم من المرض؛ لأنّه أخذ جسمًا لهذه الغاية، ولم يكن من الموافق أن يعتصم من الموت حرصاً على القيامة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ولم يكن من الملائم أن يكون الموتُ عن مرض فيتبادر إلى الظنّ أنّ الذي كان في الجسد لا يخلو من ضعف. أفَلَمْ يَجُع إذن؟ بلى جاعَ بحسب مقتضيات الجسد، ولكنه لم يمُتْ جوعاً بسبب الربّ الذي كان يحملُ ذلك الجسد. ولئن مات ليفتديَ الجميع فإنّه لم يعرف فساداً. فقد قام كاملاً سليماً، لأنَّ جسدَه لم يكن جسدَ آخَر، بل جسد الحياة نفسها.

٢٢ – ولكن قد يقول أحدٌ: كان بإمكانه أن يتملَّصَ من مؤامرةِ اليهود، ويُبقي على جسدهِ غيرَ مائت. فليعلَم هذا القائل أنّ ذلك لم يكن أيضاً ملائماً للربّ؛ كما أنّه لم يكن لائقاً لكلمة الله، وهو الحياة، أن يُنزِل الموتَ بجسدهِ بمبادرة منه، ولم يكن ملائماً له أن يهرب من الموت يُنزِلهُ به آخرون؛ كان الأجدر به أن يطلبَ الموتَ ليقهرَهُ، وقد كان على حقٍّ عندما لم يُغادر الجسد من تلقاء ذاته، ولم يتفادَ مؤامرةَ اليهود. وما كان هذا الموقف يدلّ على أيّ ضعفٍ في الكلمة، بل كان يُعرّف به مخلّصاً وحياة، إذ إنّه كان ينتظر الموت للقضاء عليه، وكان مُتعجّلاً، لأجل خلاص الجميع، في تحقيق الموت الذي أعدّوه له. ومن ناحيةٍ أُخرى لم يأتِ المخلِّصُ ليُحقِّق موتَهُ الخاصَّ، بل موت البشر. لم يُلقِ عنه الجسدَ بموتٍ طبيعيّ، لأنّه الحياة ولم يكن الموتُ في طبيعته، ولكنّه تقبّل ما أَعدَّهُ له البشر. فقضى على الموتِ قضاءً كاملاً عندما حلَّ بجسَده. ومن الممكنِ أن نجدَ تعليلاً صوابياً آخر لنهاية جسد الربّ. فقد كان الربُّ يفكّر قبل كل شيء بالقيامة التي كان مزمعاً أن يحقّقها لهذا الجسد. فمن آيات الانتصار على الموت أن يُظهر هذه القيامة للجميع، وأن يُقنِع الجميع بأنّ الفساد قد أبطلَهُ هو، وأنّ عدمَ فسادِ الأجساد قد أصبح أمراً

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مُكتَسباً: لقد حفظ جسدَهُ غيرَ فاسدٍ ليَقدّمه للجميع برهاناً على القيامة العامّة وعربوناً لها. وأمّا لو كان الأمر بخلاف ذلك، فمرضَ جسدهُ، وانفصل عنه الكلمة في نظر الجميع، لما كان من اللائق بمن كان يشفي الآخرين من الأمراض، أن يُهمل جسدَهُ تحت وطأة المرضِ المُضني. كيف يُعْقَل أن يَطردَ عاهاتِ الآخرين وهيكلُه الخاص يفقد قوّته؟ إذن لكان هُزأةً لو أتُّهم بالعجز عن طرد المرَض؛ أو لو كان غير عاجزٍ ولم يَقم بأيِّ عمل لَعُدَّ خالياً من روح الإنسانية حتّى بالنسبة إلى الآخرين.

٢٣ – ولكن لو مات بدون مرض، ولا ألم، منفرداً ووحيداً في إحدى الزوايا، أو في صحراء، أو لو أُخْفي الجسدُ في مكانٍ ما، ثمّ ظهر فجأةً، معلنًا أنّه قام من بين الأموات، لكان في نظر الجميع راويَ أساطير، ولَما صُدِّق كلامُهُ لو تحدَّث عن القيامة، إذ لم يكن هنالك من يشهد على أنّه مات. فالقيامة يجب أن يسبقها الموت، وما من قيامةٍ جرت بدون موتٍ سابق. ولو جرى موتُ الجسد في مكان ما خَفيّ، لو ظلَّ خفيًّا وبدون شُهود، لكانت قيامتُه أيضاً خفيَّةً وبدون شهود وكيف يُعلن قيامتَهُ بعدما قام، لو أنّ الموت جَرى في الخفية؟ أو لَم يطردِ الشياطين أمامَ نظر الجميع، ويُعِد البصرَ إلى من وُلد أعمى، ويحوّل الماء الى خمر لكي يحمل على الاعتقاد بأنه كلمة الله، فلماذا لا يُظهِر أمام الجميع أنّ جسدَه الذي مات غير قابلٍ الفساد، لكي يحملَ على الاعتقاد بأنّه الحياة. وهل كان في إمكان تلاميذه أن يحملوا بثقةٍ بُشرى القيامة لو لم يكن في إمكانهم أن يقولوا إنّه مات أوّلاً؟ وكيف كان من الممكن أن يصدّق الناس قولهم بأنّه مات أوّلاً، ثمّ قام بعد ذلك، لو لم يقعوا، في ما بين مخاطبيهم، على أناس

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يشهدون على أنّه مات؟ فإنّ فرّيسييّ ذلك الزّمان أَبوا أن يؤمنوا، مع أنّ الموت والقيامة كانا قد حدَثا على مشهد من الجميع، وقد أَجْبروا شهود العيان على إنكار القيامة؛ ولكن لو حدث ذلك في الكتمان الشديد فبكم ذريعة كانوا يتذرَّعون لإخفاءِ كفرهم؟! ولكن كيف كان في إمكانه أن يُظهرَ نهايةَ سلطانِ الموت، وانتصارَهُ عليه، لو لم يُجْرِهِ على مرأى من الجميع ويقضِ عليه بالموتِ نفسه، ويُلاشِهِ بعدمِ فسادِ الجسد؟

٢٤ – ما قد يمكن أن يقوله الآخرون يجب علينا أن نجلوَهُ في هذا العرض. فقد يُقال أيضاً: لو كان على موته أن يَجريَ على مرأى من الجميع وأمام شهود، لكي يكون خبرُ قيامته جديراً بالتصديق، كان عليه أن يختار لنفسه موتاً مجيداً تجّنباً لعار الصليب. ولكنّه لو فعل ذلك لَشُكَّ في كونه قادرًا على أيّ نوعٍ من أنواع الموت، وحُصِرت قدرته في النوع الذي يختاره هو، ولَتُذُرِّعَ أيضاً بما يحملُ على إنكار قيامتهِ. وهكذا حدث الموتُ، لا بمُبادرةٍ شخصيَّةٍ منه، بل بمؤامرةٍ حتّى يُميتَ المخلّصُ الموتَ الذي يُنْزَلَ به. فالكميّ الشُّجاع، العظيمُ الفطنةِ والشجاعة، لا يختارُ هو بنفسه خصومَهُ، حتّى لا يقالَ عنه إنّه يخشى البعضَ منهم، ولكنّه يدعُ للنظّارة أن يختاروا، ولا سيّما إذا كانوا له كارهين، حتّى يقهَر من اتّفقوا على اختياره، ويقتنعوا بكونه الأقوى. كذلك مَن هو حياةُ الجميع، المسيحُ ربُّنا ومخلّصُنا، لم يتصوّر لجسدهِ نوعاً معيَّناً من الموت، حتّى لا يُظنَّ أنّه يخشى نوعاً آخر، ولكنّه تقبّلَ وتحمّل على الصليب الموتَ الذي انزله به الآخرون، ذلك الموت الذي اختاره له أعداؤهُ، ورأوْا فيه فظاعةً ومذلّة وقسوةً لا تُطاق. فَبِقهرهِ هذا الموتَ يُبيّنُ أنّه الحياة ويقضي على سلطان الموت.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لـقد حدثَ حدثٌ رائعٌ وجديرٌ بالإعـجاب: الموت الـشّائن الذي أنزلوه به أصبح آية انتصاره على الموت نفسه. إنّه لم يَمُت مَوْتَ يوحنّا الذي قُطِع رأسه، ولم يُنشر بالمِنشار كأشعيا، حرصاً على أن يبقى جسدهُ في موته كاملاً وغير مُنقَسِم، وتجّنباً للحجّة التي يتّخذها اولئك الذين يُريدون تقسيم الكنيسة.

٢٥ – كل هذا يتوجّه الى الذين من الخارج، أولئك الذين يتهالكون على النقاش والحجاج، ولكن إذا تساءل أحدٌ منّا، لا في سبيل الخصام، بل في سبيل التّثقُّف، لماذا لم يَخْتر موتاً آخر غير موت الصّليب، فَلْيَعْلم هو أيضاً أنّ صيغةَ الموت هذه هي الأصلح لنا، وهي التي لم يتقبَّلها الربُّ إلاَّ لسببٍ من الأسباب التي تعود علينا بالفائدة. لَئِن أتى ليحمل اللعنة التي تبهظُنا، فبأيّ طريقةٍ يمكنه أن يصيرَ لعنة (رَ غلا ٣: ١٣). سوى تقبّل موت الملعونين. وهذا الموت يقتضي الصلب، وقد كُتب «ملعونٌ كلُّ من عُلِّق على خشبة» (تث ٢١: ٢٣؛ غلا ٣: ١٣). وإذا كان موتُ الربّ فِديةً عن الجميع، ونقضاً للحائط الحاجز، وتحقيقاً لدعوة الأمم، فكيف كان في إمكانه أن يدعوَنا لو لم يُصْلَب؟ فعلى الصليبِ وحده يموت الإنسان وذراعاهُ ممدودتان. وكان من الموافق أن يقاسي الربُّ هذا الموت ويبسط يديه: بالواحدة يشدّ إليه الشعبَ القديم، وبالثانية يشدّ الأُمم، ويجمع الفريقيّن فيه. وهذا ما قاله هو نفسُه عندما دلّ على أيّ ميتةٍ سيفتدي بها جميعَ البشر. «وأنا متى رُفِعْتُ عن الأرض اجتذبتُ إليّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢). وإلى ذلك فإذا كان الشيطانُ، عدوُّ جنسِنا، الساقطُ من السماءِ، يتجوّلُ في الأماكن التي تحت الهواء، ويبسط سلطانه على الأبالسة الذين يحيطون به، والذين يشبهونه في العصيان، فإنّه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يحدِث بوساطتهم خيالاتٍ للذين ينخدعون، ويُقيم حاجزاً أمام الذين يُريدون الارتفاع – والرسول يقول في هذا الموضوع: «مُنْجَرّين لرئيسِ قوّاتِ الهواء، الروح الذي يعملُ الآنَ في أبناءِ المعصية» (أف ٢: ٢). لقد جاء الربُّ لكي يقهرَ الشيطان، ويُطهِّر الهواء، ويفتح لنا الطريق التي تقود الى السّماء، على حدّ قول الرسول: «خلالَ الحِجاب أعني جسدَه» (عب ١٠: ٢٠)، وهذا ما كان سيتمّ بالموت؛ ولكن بأيّ موت غير الذي حدث في الهواء، أي بالصَّليب؟ وحدهُ يموتُ في الهواء من يموتُ على الصَّليب. فبحقٍّ اختار الربُّ هذا الموت. وهكذا بارتفاعه عن الأرض طهّر الهواء من جميع مكايد إبليس والشياطين، قائلاً: «لقد رأيتُ الشيطانَ هابطاً من السماءِ كالبرق» (لو ١٠: ١٨)؛ ولكنّه أعاد فتحَ الطريق التي تَصعدُ الى السماوات، ومهّدها قائلاً أيضاً: «ارفَعْنَ رؤوسكنّ ايتها الأبواب، وارتفِعنَ أيتّها المداخلُ الأبديّة» (مز ٢٣: ٧). فالكلمة لم يكن بحاجة إلى أن تُفتح له الأبواب، هو ربّ الجميع؛ لم تكن أيّ خليقة من الخلائق مُغلقةً أمامَ خالقها؛ ولكنّنا نحن كنّا بحاجة الى ذلك، نحن الذين رفَعَنَا الى العلاء بفضلِ جسده الخاص. فكما أنّه أسلمه للموتِ من أجل الجميع، كذلك شقّ به الطريق التي تقود إلى السَّماوات.

قيامةُ المسيح

٢٦ – كان الموتُ لأجلنا على الصَّليب أمراً مُوافقاً وصوابياً: كان سببه معقولاً من جميع الوجوه، ومُقعداً على حُجج قَيّمة. لم يكن خلاص الجميع ليتِمَّ على غير الصّليب. وهكذا أيضاً رفض أن يكون غيرَ مرئيّ على الصّليب، وقد جعل الخليقة كلها تشهد على حضور

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

خالقها. لم يحتمل أن ينتظر هيكلهُ، جسده، مدّةً طويلة، فبعدما أظهرهُ جثماناً هامداً من جرّى مقاومته للموت، أقامه في اليوم الثالث، حاملاً آية انتصاره على الموت، أعني عدم الفساد وعدم التأثُّر اللذين اكتسبها ذلك الجسد. كان في إمكانه حالاً بعد موته أن يبعثَ الجسد ويُعيدَه الى الحياة؛ ولكنّ المخلّص، في حكمته التي تَسبرُ الزّمن، لم يفعل شيئاً من ذلك. لأنّه لو أظهر قيامته في الحال لقِيل بأنّه لم يمت بتاتاً، أو بأنّ الموت لم يَمْسَسْه قط. ولو حدث الموتُ والقيامة حالاً وبغير انفصال لظلَّ خبرُ عدم الفساد غير ثابت. ولكيُ يظهر الكلمةُ أنّ جسده مات، أمضى عليه نهاراً، وفي اليوم الثالث أظهره للجميع منزَّهاً عن الفساد. فلكي يُظهر الموتَ في جسده لم يبعثه إلاّ في اليوم الثالث. ولو طال انتظاره، على أن يبعث في ما بعد جسداً منحلاً، لتعرَّضَ للتكذيب، وكان كأنّه ينقل جسداً غير جسده. فقد كان من الممكِن بعد فترةٍ من الزَّمن، أن يُرتاب من أمر الظهور ونسيان ما جرى. ولهذا لم يَلْبث أكثر من ثلاثة أيّام، ولم يُطِل انتظارَ أولئك الذين سمعوهُ يتكلّم على القيامة. وفيما كان صوتُه لا يزالُ في آذانهم، وعيونهم لا تزالُ تنتظره، ونفوسُهم تحبسُ أنفاسها، وعندما كان القتلة الذين قتلوه وكان في إمكانهم أن يُثبتوا موت جسد الربّ، عندما كانوا بعد على قَيد الحياة وفي الأماكن التي وقعت فيها الجريمة، عند ذلك أظهرَ ابنُ الله شخصيًّا الجسدَ الذي ماتَ لثلاثة أيّام، منزَّهاً عن الموت والفساد. لقد تبيَّن للجميع أنّ الجسد لم يمُت من ضعفٍ طبيعيّ في الكلمة الذي كان ساكناً فيه، ولكن لِيُقْهَرَ الموتُ فيه بقدرةِ المخلِّص.

٢٧ – أن يكون الموت قد غُلبَ، وأن يُمثِّلَ الصَّليبُ الانتصار

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عليه، وأَن يكون الموتُ مجرَّداً من القوّةِ من الآن فصاعداً، وأن يكون قد مات، لدينا على ذلك كلّه برهان دامغ، وشهادة ثابتة في أنّ جميع تلاميذ المسيح احتقروه، وناهضوه، ولم يخشوه، ولكنّهم، بعلامة الصليب وإيمان المسيح، داسوه بأرجلهم على أنّه مَيْت. قديماً، قبل مجيء المخلّص الإلهيّ، كان الجميعُ يبكون المائتين وكأنّهم صائرون الى الفساد، ولكن بعد إذ بعث المسيح جسدهُ لم يَعُد الموتُ مُخيفاً، وأصبح جميعُ المؤمنين بالمسيح يدوسونه بالأرجل، وكأنّه أمرٌ لا يُؤبَه له، وقد آثروا أن يموتوا على أن يرتدّوا عن إيمانهم بالمسيح. كانوا يعلمون أنّهم إذا ماتوا لا يَفْنون، بل يحيون، ويصبحون بالقيامة منزَّهين عن الفساد. ولكنّ إبليس الذي كان يتّخذ من الموت سبيلاً الى الشتائم، أصبح الآن في الحقيقة وحدَهُ المائت بعد إذ أُزيلت أهوالُ الموت. وإليك البرهان: كان البشر، قبل إيمانهم بالمسيح، ينظرون الى الموت برهبةٍ وهلَع؛ وعندما اهتدوا الى الإيمان بالمسيح والى عقيدته، صاروا يَحْقِرون الموت إلى حدّ أنّهم صاروا يقتحمونه بحماسة، وبتغلّبهم عليه، يؤدّون الشهادة على قيامة المخلّص. أحداثٌ يهرعون إلى الموت! رجالٌ ونساءٌ يتدرّبون على مقاومته. لقد فقد الموتُ قوّته بحيثُ إنّ النساء اللواتي خُدِعَن به قبلاً، يعبَثْنَ به الآن كما يُعْبَث بكائنٍ ميتٍ ولا شأنَ له. إذا تغلّبَ ملكٌ عظيم على طاغيةٍ وغلّ رجليه ويدَيه، يهزأ بالطاغية جيمع المارّة، ويَلْكمونه، ويمزّقونَه إرباً إرباً، وقد أمنوا هياجَهُ وقسوتَه، بسبب الملك الذي قهرَهُ؛ كذلك جرى للموت بعد التغلُّبِ عليه، وبعد إذ غَلّ يديه ورجليه المخلِّصُ على الصليب، فكلُّ الذين يمشون في خطى المسيح يدوسونه بالأرجُل، ويؤدّون الشهادة للمسيح هازئين بالموت، وساخرين به بالألفاظ التي وُجّهت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

اليه قديماً: «أين غلَبتُك ايها الموت؟ أين شوكتكِ أيتّها الجحيم»؟ (١ كو ١٥: ٥٥).

٢٨ – أيكون هذا برهاناً غير كافٍ على عجز الموت؟! أو يكون عرضُ انتصارِ المخلّص على الموت وجيزاً، إذا كان أحداثٌ وفتياتٌ في المسيح يزدرون الحياة الحاضرة ويتأهّبون للموت؟! فالإنسان من طبيعته يخشى الموت وانحلال الجسد؛ ولكنّه، ويا للعجب!، عندما يتلبَّس بإيمان الصليب يتغلَّب على نزعة الطبيعة، ويصبح، في سبيل المسيح، غيرَ هيَّابٍ للموت. النار في طبيعتِها مُحْرِقة، ولكن إذا قيل إنَّ هنالك مادّةً لا تقوى النارُ على إحراقِها بل تقوى هي على النار، كما يُقال عن حرير الهنود الصخري (أميانت)، وإذا شكّ أحدهم في حقيقة ما قيل، وأراد أن يُجريَ اختباراً فعليًّا فإنّه يلبسُ المادّة التي لا تشتعل ويرمي بنفسه في النار فيُؤمنُ بعد ذلك بضعف النار؛ أو إذا أراد أحدٌ أن يرى الطّاغية المقيَّد، وجبَ عليه أن يمضي الى بلدِ المُنتصرِ ومملكتِه فيرى من كان الناسُ يخشونه مجرّداً من كل قُدرة. وكذلك إذا بقيَ إنسانٌ غيرَ مصدّقٍ ما قلناه، مع كلّ ما أوردناه من براهين مهمّة، ومع هذا العدد الضّخم من الشّهداء في المسيح، ومع كل ما يراه من استحقاق بالموت عند أتباع المسيح؛ إذا لم يقتنعْ بعدُ بانهدام الموتِ ونهايته، يحسنُ به أن يأخذه العَجبُ من أمرٍ بهذه العظَمة، على أن لا يتصلَّب في عدم الإيمان، ولا تقودَه القحةُ الى إنكار أحداثٍ بهذا الوضوح. وكما أنّ الذي لبس الحرير الصخريّ خَبَر أنّه غير قابل الاحتراق، والذي أراد أن يرى الطاغية المقيَّد انتقل الى مملكةِ المُنتصِر، كذلك الذي لا يؤمِنَ بالانتصار على الموت، يجب عليه أن يتقبّل إيمان المسيح، وينضوي الى مدرسته: عند ذلك يرى

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عجزَ الموت والانتصار الذي أُحرزَ عليه. كثيرون هم الذين يكونون في البدء غير مؤمنين، ومستخفّين، ثمّ يتحوّلون إلى الإيمان، فيستخفّون بالموت إلى حدّ الاستشهاد في سبيل المسيح.

٢٩ – إذا كان الموتُ، بعلامة الصليب والإيمان بالمسيح، قد ديسَ بالأَرجل، فمن الواضح في حكم الحقيقة، أنَّ المسيح، دون سواه، قد حاز آياتِ الغلَبَةِ على الموت، وأنّه جرَّد الموت من قدرته. لئن كان الموتُ لا يزال بطّاشاً، وكان من ثمّ مرهوباً، ولئن أصبح الآن بعدَ مجيء المخلّص وموت جسدهِ وقيامته، مُزدَرى ومحتقراً، فذلك دليلٌ واضح على أنّه قُضي عليه وقُهر بارتفاعِ المسيح على الصليب. في آخر الليل عندما تظهر الشمس وتُنيرُ سطحَ الأرض كلّه لا مجال للشك في أنْ هذه الشمس التي تنشرُ أشعَّتها في كل مكان، هي التي طردتِ الظُّلماتِ وأنارت كل شيء. هكذا، فبما أنّ الموتَ قد احتُقِر وديسَ بالأرجُل منذُ ظهور المخلِّص الخلاصيّ في الجسد وموته على الصَّليب، كان من الواضح أنّ المخلّص نفسه الذي ظهر في جسدٍ، أطاحَ الموتَ وعمل كل يوم بتلاميذه على السيطرة عليه. فعندما نرى أُناساً مفطورين على الضّعف يندفعون نحو الموت في غير خشيةٍ لما يعقبه من فساد، ولا للطّرُق التي تؤدّي إلى جهنّم، ولكنّهم يَسْتعجلونَ الموتَ بقلبٍ مُضطرِم، وفي غير تهيُّبٍ للأَعذْبة، يفضلّون على الحياة الحاضرة الحوافزَ التي تحفزهم على الموت من أجل المسيح؛ عندما نرى رجالاً ونساءً وأحداثاً يندفعون إلى الموت لأجل الإيمان بالمسيح، فمن يكون أحمقَ وأخرقَ وكافراً وأعمى البصيرة إلى حدٍّ أنّه لا يفقهُ ولا يُدرك أنّ المسيح، الذي يشهد له هؤلاء الناس، هو يهبُ كل واحد منهم الغلبةَ على الموت، مُفرِغاً الموت من فاعليّته في جميع

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

من يؤمنونَ به ويحملونَ آيةَ صليبه. من يُبصر أفعواناً مدوساً بالأرجل، وهو على علم بما كان عليه هذا الأفعوان من الشراسة، فإنّه لا يشكّ في كونه ميتاً ومجرَّداً من كل قوّة، ما لم يكن مُخْتلَّ العقل، وفاقداً لصحّةِ الإحساس. ومن يُبصر أطفالاً يعبثون بأسدٍ ويتظاهر بأنّه لا يعلم هل هذا الأسد ميت أو فاقد كلّ قوّته؟ فكما أنّه من المُمكنِ أن يرى الإنسان حقيقةَ هذه الأحداثِ بعينيه، كذلك يكون عندما يعبثُ مؤمنو المسيح بالموت ويحقرونه، فلا مجالَ بعدُ للشكّ أو عدم الاعتقاد بأنّ المسيح قهر الموتَ ووضع حدًّا للفساد.

٣٠ – في ما قيل بُرهانٌ قيّمٌ على أنّ الموتَ قُضيَ عليه، وأنّ صليبَ المخلّص آيةُ تغلُّبِهِ عليه. أمّا قيامةُ الجسدِ التي يُصبح بها الجسدُ غيرَ مائتٍ والتي ستحصلُ بفضل مخلّصِ الجميع، المسيحِ الذي هو في الحقيقة الحياةُ، فإنّ البرهان عنها بالأحداث أوضحُ من الخطب بالنسبة إلى الذين تكون بصيرتهم سليمة. إذا كان الموتُ قد غُلِب، كما أوضحنا ذلك، وكان الجميعُ قد داسُوه بالأرجل بسبب المسيح، فالمسيح هو أوّل من داسه برجلَيْه في جسده وتغلّب عليه. وإذا كان قد قضى على الموت فماذا بقي عليه أن يفعل، سوى أن يبعث الجسد ويجعله آيةَ انتصاره على الموت. وكيف تكون الغلبةُ على الموت في عيون الناس، لو لم ينبعث جسدُ الربّ؟ وإذا كانت معالجتنا هذه لموضوع القيامة غير كافية ففي إمكاننا أن ندعمها بأحداثٍ منظورة. فمتى مات الإنسان يُصبح عاجزاً عن أيّ عملٍ يُعمل. وعرفانُ جميل المائت ينتهي عند القبر، ثمّ يضمحلّ؛ أمّا الأحياء فهم وحدهم يَعملون ويُؤثّرون في البشر. وكل إنسان يستطيع أن يرى ذلك، وعندما يحكم بحسب ما يرى، يعترفُ بالحقيقة. فإذا كان المخلّصِ يعملُ بهذا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المقدارِ بين البشر، إذا كان كل يوم ومن جميع الجهات يُقنِع، في الخفاء، هذا العدد الكبير من اليونانيّين والبرابرة، فينحازون إلى الإيمان به، ويخضعون جميعهم لتعليمه، فكيف يمكن والحالةُ هذه، الامتناعُ عن الحكم والتساؤل هل قيامة المخلّص قد جرَتْ، وهل المسيح حيّ، أو بالأحرى هل هو الحياة؟ هل يُعدّ عمل على ميتٍ النّفوذُ الى عقول البشر، بحيثُ ينكرون نواميسَ آبائِهم ويوقّرون تعليم المسيح؟ أو إذا كان كالأموات لا يعمل، فأنّى له أن يوقف عمل العاملين الأحياء، بحيث يضع الزّاني حدًّا لزِناه، والقاتل لإجرامه، وغيرُ العادل لطمعه، وبحيث يتنقل الكافرُ إلى حياة التقوى؟ فلو ماتَ ولم يَقم، كيف كان في إمكانه أن يدحرَ ويُسقط الآلهة الكذبة والشياطين التي كان الكفرة يعبدونها وينسبون اليها الحياة. فما إن ظهر المسيح وإيمانه حتّى تهاوت الوثنيّة، وأُزيلت مكيدة الشياطين؛ لا يستطيع شيطانٌ أن يتحمّل هذا الاسم، فما إن يسمعه حتّى يهربَ ويتوارى. ليس هذا عملَ ميت، ولكنّه عمل حيّ، بل عمل إله. ومن المستغرب أن يُعدَّ أحياءً الشياطينُ التي يطردُها، والأوثانُ التي يُسقطها، ويُدَّعَى أنّ الذي يطردها، ويزيلها بقدرتهِ والذي يدعوه الجميعُ ابن الله، أنّ هذا ميت!

٣١ – إنّ الذين يأبَوْن أن يؤمنوا بالقيامة يقعون في تناقضٍ مع أنفُسهم، ما دام جميع الشياطين والآلهة التي يعبدونها تخضع لهذا المسيح الذي يدّعون انه قد مات، فما أنّ المسيح بالحري هو الذي يُبيّن أنّها قد ماتت بجُملتها. فمن الثابت أنّ المَيت لا يستطيع أن يفعل شيئاً، والمخلّص يعمل كلّ يوم مثل هذه المعجزات، فيجذبُ الى التّقوى، ويقنعُ بحياة الفضيلة، ويعلّم علم عدمِ الموت، ويدفع

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

إلى الرغبة في الأمور العلويّة، ويكشف عن معرفة الله ويبعثُ القوَّة على الموت، ويَظْهَر لكل واحدٍ، ويحطّم كفرَ الأوثان، فيما لا يستطيع شيئاً من ذلك آلهةُ الكُفَّار وشياطينُهم، ولكنّ حضورَ المسيح وحدَهُ يجعلُها أمواتاً ليس لها إلاّ الظاهر الفارغ والباطل، يضافُ إلى ذلك أنَّ سِحر السَّحَرة يتوقّف بإشارة الصّليب، وكلّ تعزيم يتلاشى، وجميع الأوثان تُحتقر وتُهمل، وكلّ مُتعةٍ فاسقة يوضع لها حدٌّ وكل إنسان يرفع عينيه من الأرض إلى العلاء – عمَّن يُقال إنّه ميت؟ أعن المسيح الذي يقوم بهذا كلّه؟ أم عمّن لا يقوم بأيّ عمل، بل يكون هامدًا بلا حياة كهذه الشياطين والأوثان الشَّبيهة بالموتى؟ فابن الله حيٌّ فعَّال، يعملُ كلَّ يوم لخلاص الجميع. أمّا الموت فقد حُكِم عليه بأن يفقدَ قدرتَه يوماً فيوماً؛ والأوثان والشياطين تزداد شِبهاً بالموتى، بحيث أصبح من غير الممكنِ أن يلبث بعدُ أحدٌ في شكٍّ بالنسبة إلى موضوع قيامة جسد المسيح. إذا رفضَ أحد أن يؤمن بقيامة جسد الرب فإنّه يدلُّ بذلك على أنّه يجهل قدرة الكلمةِ وحكمةِ الله. إذا كان الكلمةُ قد اتّخذ في الحقيقة جسداً، وجعله جسدَهُ الخاص، كما أوضحنا ذلك في كلامنا، فماذا كان على الربّ أن يفعلَ بجسده؟ أو ماذا ستكون نهاية الجسدِ بعدما اتّحد به الكلمة؟ كان لا بُدّ له من الموت، إذ كان قابل الموت، ومعدًّا للموت من أجل خلاص الجميع؛ ولهذه الغايةِ هيّأهُ المخلِّص لنفسه. ولكن لم يكن من الممكن أن يبقى في الموت وقد أصبح هيكل الحياة. وهكذا مات لقبوله الموتَ، ولكنّه استعادَ الحياةَ بسبب الحياة التي كانت فيه، وأعماله تشهدُ بقيامته.

٣٢ – إذا رفض البعض أن يؤمنوا بقيامتهِ لكونهم لا يَرَونه،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فعليهم أن ينكروا أيضاً ما في طبيعة الأشياء. فإنّه من شأن الله أن لا يُرى، ولكن من شأننا أن نعرفه من أعماله كما قلنا آنفاً. لو لم توجد الأعمال لكان من حقّهم أن لا يؤمنوا بمن لا يظهر. ولكن إذا كانت الأعمالُ تَصيح وتُريهِ بوضوح، فلماذا يتعنّتون في إنكار حياة القيامة التي اتّضحت هذا الوضوح؟ لئن كانت بصيرتهم عمياء فباستطاعتهم أن يُدركوا بحواسّهم الخارجيّة قدرة المسيح وألوهته اللتين لا تقبلانِ جدلاً. وهكذا إن لم يرَ الأعمى الشمس، فإنّه يتلقّى مع ذلك حرارتها: إنّه يعلم أنّ فوق الأرض شمساً. كذلك الأمرُ مع الذين يخالفوننا في الرأي، ويلبثون على رفض الإيمان، بسبب عمى بصيرتهم عن الحقيقة؛ فإذا شاهدوا ثبات الآخرين في الإيمان أقلعوا، ولا شكّ، عن إنكار ألوهةِ المسيح والقيامةِ التي قامها. من الواضح أنّه لو كان المسيح ميتاً لَما طردَ الشياطين وفضحَ الأوثان. الشّياطين لا تخضع لميتٍ؛ فإذا كان اسمه يهزمهم، فمن الواضح أنّه غير ميت، ولا سيّما وأنّ الشياطين ترى ما يخفى على البشر، فكان في إمكانها أن تعرف هل المسيح ميت فلا تخضع له البتّة. والشياطين ترى الآن ما يأبى الكفّار أن يؤمنوا به، أي أنّه الله، ولهذا تُقِرّ وتخرُّ على قدميه قائلةً ما جهرَت به عندما كان في جسده: «لقد عرفتُ من أنتَ، إنّك قدُّوس الله» (لو ٤: ٣٤) و«مالي ولك يا يسوع ابنَ اللهِ العلّي، ناشدتُك الله أن لا تُعذِّبَني» (مر ٥: ٧). فإذا كانتِ الشياطين تعترفُ به وإذا كانت أعمالُه تشهد له كلَّ يوم، كان من الواضح — وليس لأحدٍ أن يُعانِدَ الحقيقة — أنّ المخلّص بعث جسدهُ، وأنّه ابن الله الحقيقيّ، الصادر عن الله، على أنّه الكلمة الخاصّ المولود من الآب، حكمةُ الآب وقدرتـه، الذي اتّـخذ جـسداً في آخر هذه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الأزمان، لأجل خلاص الجميع، وعلّم الأرض كلَّها أمورَ الآب، وتغلَّب على الموت، ومنح الجميع عدم الفساد بموعد القيامة، ببَعْثِ جسدِهِ الخاص كباكورة لتلك القيامة، وإظهاره آيةً للغلَبة على الموتِ والفساد بعلامة الصَّليب.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الخامس

ضدّ اليهود القديمي الإيمان

تجسّدُ المسيح وموته: شهادات وبراهين

٣٣ – بما أنّ الأمور هكذا، وأنّ البرهانَ على قيامة الجسد، والانتصار الذي حازه المخلّص على الموت أصبحا واضِحَيْن، فلْنَمضِ ونَدْحَض عدمَ إيمان اليهود وسُخْرَ اليونانيّين، فمع ما أظهرته الأحداث لبث اليهود على عدم إيمانهم، واليونانيّيون على سُخرهم، ناشرين في كل مكان ما يُظهره الصَّليبُ وتجسُّدُ كلمة الله من عدم اللياقة. ولكنّ خطابي لن يتأخَّر في التصدّي لهؤلاء وأولئك، ولا سيّما وإنّ فيه ضدّهم براهينَ نيّرة. فاليهود الذين لا يؤمنون ينطلقون في حُججهم من الكتاب المقدّس الذي يقرأونه هم أيضاً. والكتاب الموحى به، من أوّله الى آخره، يُعلِن هذه الأمور، وذلك ظاهر في كلامه. فكان الأنبياء ينبئون منذ زمنٍ بعيد بمعجزة العذراء والطفل الذي كان مزمعاً أن يولد منها: «ها إنّ العذراء تحبل وتلِدُ ابناً وتدعو اسمه عمّانوئيل أي اللهُ معنا» (اس ٧: ١٤؛ متى ١: ٢٣). وموسى الذي كان في الحقيقة عظيماً، والذي لا يشكّون في حقيقة ما يقول، كان يعدُّ من أعظم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الأمور ما يمكن أن يُقال عن تجسُّد المخلِّص، وإذ تحقّق الأمرَ سجّله كما يلي: «يَسْعَى كوكبٌ من يعقوب ويقوم صولجانٌ من إسرائيل فيحطِّم طرَفَي موآب» (عد ٢٤: ١٧)، وأيضاً: «ما أجملَ خيامك يا يعقوب وأخبيتك يا إسرائيل، مُنبسطةٌ كأَوْديةٍ وكجنّاتٍ على نهر، وكأغراسِ عودٍ غرسها الربّ، وكأرزٍ على مياه. رجلٌ من زرعِهِ يخرجُ وشعوباً كثيرة يسود» (ع ٢٤: ٥ – ٧). وأشعيا يقول أيضاً: «قبلَ أن يعرفَ الصبيُّ أن ينادِيَ يا أبتِ ويا أُمّي تُحمل ثروةُ دمشقَ وسلْبُ السامرةِ إلى أمام ملك أشّور.» (ش ٨: ٤). في كلمات النبوّة هذه ما يدلُّ على أنّه سيظهرُ إنساناً. والأنبياء ينبئون أيضاً بأنّ هذا الذي سيجيء سيكونُ سيّدَ الجميع، ويقولون: «هوذا الربّ يركب على سحابةٍ سريعةٍ ويدخلُ مصرَ فتتزلزلُ أوثانُ مصرَ.» (أش ١٩: ١). ومن هناك يدعوه الآب قائلاً: «من مصرَ دعوت ابني» (متى ٢: ١٥؛ هـ ١١: ١).

٣٤ – وكذلك موتُه لم يُغْفَل، فقد دلّت عليه الكتُب المقدّسة بكل دقّة؛ وحتّى سبب موته الذي لم يعانه الاّ لخلاص الجميع ولحياتهم الخالدة، ومؤامرة اليهود، وسوء معاملتهم له، كل ذلك لم تتخلَّ عن ذكره، لكي لا يبقى شيء ممّا جرى مجهولاً أو غير مفهوم على حقيقته. تقول الكتب المقدّسة: «رجلُ أوجاعٍ ومتمرِّسٌ بالعاهات، ومثلُ ساترٍ وجهَهُ عنّا، مُزدَرى فلم نعبأ به. إنّه لقد أخذَ عاهاتنا وحملَ أوجاعَنا فحسبناهُ ذا برصٍ مضروباً من الله ومذلَّلاً. جُرِحَ لأجل معاصينا، وسُحِق لأجل آثامِنا، فتأديبُ سلامِنا عليه وبشَدْخهِ شُفينا (أش ٥٣: ٣ – ٥) تأمَّلْ محبّة الكلمة للبشر، وهو يتحمّل الإهانة لأجلنا، لكي لا يلحقنا الذلُّ والعار: «كلُّنا ضَللنا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كالغنم، كل واحدٍ مال إلى طريقه، فألقى عليه الربُّ إثمَ كلِّنا. قُدّمَ وهو خاضِعٌ ولم يفتَحْ فاه. كشاةٍ سيق الى الذبح، وكحَملٍ صامتٍ أمام الذين يجزّونه ولم يفتح فاه. في مذلَّتِه أُلغي قضاؤه.» (أع ٨: ٣٢...؛ أش ٥٣ – ٦ – ٨). ولكي لا يحملَ أحداً الظنُّ على أنّه إنسانٌ عاديّ بسبب آلامه، تُلفت الكتابةُ المقدّسة أفكار الناس إلى حقيقته فتصفُ قدرتَهُ، وطبيعته التي تختلف عن طبيعتنا، قائلةً: «من يصفُ مولدَهُ؟ إنّه قد انقطع من أرض الأحياء، ولأجل معصية شعبي أصابته الضّربة، فمُنِح المُنافقينَ بقبره والأغنياءَ بموتِه، لأنّه لم يصنع جوراً، ولم يوجد في فمِه مكرٌ والربُّ رضيَ أن يَسْحقَ من أمرضَهُ» (أش ٥٣: ٨ – ١٠).

٣٥ – قد تكون راغبًا، بعد سماعك نبوءةَ موته، أن تعرف ما قيل في صليبه. فلم يُغفَل ذكرهُ أيضاً؛ والقدّيسون قد أشاروا إليه إشارةً نيرّة جدًّا. فموسى أوّل من دلَّ عليه بصوتٍ صارخ قائلاً: «تكون حياتُك مُعلَّقةً حذاءَك ولا تأمن على حياتك» (تث ٢٨: ٦٦). ويؤدّي الأنبياءُ بعده الشهادة قائلين: «كنتُ أنا كحملٍ أليفٍ يُساقُ إلى الذبح، ولم أعلم أنّهم فكّروا عليّ أفكاراً أن لِتُتْلف الشجرةَ مع طعامِها ولنقطَعْهُ من أرض الأحياء» (ار ٢١: ١٩)؛ وأيضاً: «ثقبوا يَديّ ورجليّ. وأُحصّوا كلّ عظامي وهم ينظرون ويتفرَّسون فيَّ. يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون (مز ٢١: ١٧). فهذا الموت المعلّق على خشبة ليس سوى الموت على الصّليب. وما من موتٍ تُثقب فيه اليدان والرّجلان سوى موت الصليب. وأن تكون الشعوب كلها وفي كل مكان قد بدأت، بمجيء المخلّص، تعرف الله، فذلك أمرٌ لم تغفل الكتب المقدّسة عن ذكره

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أيضاً، بل قالت فيه: «في ذلك اليوم أصلُ يسَّى القائمُ رايةً للشعوب إيّاهُ تترجّى الأمم» (أش ١١: ١٠، رو ١٥: ١٢).

تفصيل خطابيّ لهذه الشهادات والبراهين

ما قلناهُ كافٍ لجلاء الأحداث. ولكنّ الكتاب المقدّس حافلٌ بالأمور التي تدحضُ عدمَ إيمان اليهود. ففي ما بين الصدّيقين، والأنبياء القدّيسين، والأجداد الذين يورد الكتاب المقدّس سِيَرَهم، مَن وُلِد من عذراء منفردة؟ أو أيّ امرأة تستطيع، بدون معونة رجل، أن تعطي الحياة للبشر؟ ألم يولد هابيل من آدم، وأخنوخ من يارد، ونوح من لامك، وإبراهيم من تَارح، وإسحق من إبراهيم، ويعقوب من اسحٰق، ويهوذا من يعقوب، وموسى وهارون من عَمْرام؟ ألم يكن صموئيل بن ألقانة، وداود بن يَسّى، وسليمان بن داود، وحزقيّا بن آحاز، ويوشيّا بن عاموص، وأشعيا بن آموص، وإرميا بن حلقيا، وحزقيال بن بوزي؟ ألم يكن لكل واحد من هؤلاء أبٌ في أصلِ ولادته؟ مَن وُلِدَ من عذراء منفردة؟ وقد اهتمّ النبيُّ كل الاهتمام ليُشِيرَ الى هذا الحادث.

مَن سبقَ مجيئَهُ إلى العالم كوكبٌ في السماوات، وأعلنهُ للكون منذُ ولادته؟ فموسى، ما إن وُلِدَ، حتّى خبأهُ أبواه. عن داود، لم يسمع جيرانُه بأيّ خبر، إذ إنّ صموئيل العظيم نفسه لم يعرفه؛ وكان يسأل هل لِيَسّى بعدُ سليل؛ وإبراهيم لم يعرفهُ ذووهُ إلاّ بعد إذ أصبح رجلاً مهمًّا. ولكنّ ميلاد المسيح لم يكن شاهدهُ إنساناً، بل كان كوكباً ظهرَ في السَّماء من حيثُ أتى هو.

٣٦ – من هو الملك الذي «قَبْلَ أن يعرفَ أن ينادي يا أبتِ ويا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أُمّي» (أش ٨ : ٤) يبلُغ مركزَ السُّلطة ويحوز آيات الغلبة عل الأعداء؟ ألم يبدأ داودُ ملكَهُ في الثلاثين من عمره، وسليمان في شبابه؟ ألم يكن يوآش في السابعة من عمره، عندما اعتلى العرش؟ ألم يكن يوشيّا أصغر منه سنًّا عندما تسلّم السلطة ولمّا يبلُغ السابعة؟ حتّى هؤلاء الذين كانوا بهذه السنّ كان في استطاعتهم أن ينادوا يا أبتِ ويا أُمّي. من كان قبل ولادته تقريباً يملكُ ويقهر أعداءه؟ وليقُلْ لي الباحثون اليهود أيّ ملك ظهر في إسرائيل أو في اليهوديّة وأناط به جميع الأمم رجاءهم! ألم تكن هذه الأمم بالحريّ مناوئةً لهؤلاء الملوك وتحارب أورشليم محاربة لا هوادة فيها. كان الجميع يحاربون إسرائيل: الأشوريّون يضيّقون عليها الخناق، والمصريّون يضطهدونها، والبابليّون يجتاحونها. والغريب أنَّ جيرانها الآراميّين كانوا أعداءها. ألم يشنّ داود الحربَ على موآب، ألم يمزّق صفوف الآراميّين تمزيقاً؟ ألم يحترز يوشيا من جيرانه، وحزقيا ألم يرهب غطرسةَ سنحاريب، وبنو عماليق ألم يحملوا حملةً على موسى الذي كان الأموريّون يناوئونه أيضاً، وسكّان أريحا ألم يُناهضوا يشوع بن نون؟ وبأيّ حالٍ، وباستثناء الهدنة، هل قامت يوماً روابطُ صداقةٍ بين الأمم وإسرائيل؟ فمن هو الذي تُنيط به الأمم رجاءها؟ لا بُدَّ من رؤيتِه؟ فهو موجودٌ حقًّا، لأنّه من المستحيل أن يكون الأنبياءُ قد نطقوا بالكذب. ومَن مِن الأنبياء القدّيسين، والآباء الأقدمين، تحمَّلَ الموتَ على الصَّليب لأجل خلاص الجميع؟ أو مَن الذي جُرِح وقُتِل لأجل شفاء الجميع؟ مَن مِن الصدّيقين والملوك انحدر إلى مصر، وبسبب انحداره تهاوت وزالت أوثانُ المصريّين؟ أجل لقد انحدر إبراهيم الى مصر وظلّت الوثنيّة قائمةً في شتّى أشكالها. ووُلِد موسى في مصر وظلَّت عبادة الأوثان على ما كانت.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٣٧ – مَن مِن الذين يشهدُ لهم الكتاب المقدّس ثُقبت يداهُ ورجلاهُ، أو عُلِّق حقًّا على خشبة، ومات على الصَّليب لأجل خلاص الجميع؟ إبراهيم مات على سريره؛ إسحق ويعقوب بسطا أرجلهما على السرير ليموتا؛ موسى وهارون ماتا على الجبل؛ داودُ مات في منزله من دون أن يقع فريسةَ مؤامرة قومه؛ ولئن طلبهُ شاول فقد نجا منه سالماً؛ أشعيا نُشِر بالمنشار ولكنّه لم يعلَّق على هشبة؛ إرميا شُتِم ولكن لم يُحكم عليه بالموت؛ حزقيال عُذّب ولكن لم يكن عذابُه لأجل الشعب، بل تنبأ فقط بما سيحدُث للشعب. ثمّ إنّ هؤلاء الذين تألَّموا كانوا بشراً من طبيعة أبناء جنسهم؛ ولكنّ الذي يُشيع الكتاب المقدّسُ أنّه يتألّم لأجل الجميع، ليس إنساناً وحسب، بل قِيلَ إنّه حياة الجميع، وإن كان كسائر البشر في الطبيعة؛ فقد قيل: «تكون حياتك معلَّقةً حذاءَك» (تث ٢٨: ٦٦)، ومن يصف مولده؟» (أش ٥٣: ٨).

من الممكن أن نصف مولدَ جميع القدّيسين، ونروي منذُ البدء ما كان كلَّ واحدٍ منهم، ومن أينَ أصلُه؛ ولكنّ الشخص الذي هو الحياة، قالت الكتابة الإلهيّة إنّ مولده لا يُوصف. فمن هو حتّى تتكلّم عنه الكتابة الإلهيّة هكذا؟ من هذا الكائنُ العظيم الذي يُبشِّر الأنبياءُ عنه بأمور عظيمة؟ ليس في الكتُب المقدّسة بهذه الصّفات سوى المخلّص العامّ للجميع، الله الكلمة، سيّدنا يسوع المسيح. فهو الذي وُلِد من عذراء، وظهر على الأرض كإنسان، وكانت ولادتُه بالجسد غيرَ قابلةٍ للوصف. وهكذا فلا أحدَ يستطيع أن يذكرَ له أباً بحسب الجسد، لأنّ جسده لم يكن مولوداً من رجُل، بل من عذراءَ منفردة. وإذا كان من الممكنِ إثبات سُلالة داود وموسى وجميع

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الأجداد، فما من أحدٍ يستطيع أن ينسب إلى رجل أصل المخلّص بحسب الجسد. فهو الذي، بوساطة الكوكب، بشّر بولادة جسده، إذ كان من الملائم للكلمةِ النازل من السماء، أن يُبشَّر به من السماء، وكان من الضروريّ أن تعلَم الأرضُ كلُّها علماً واضحاً بمجيء ملك الخليقة. ولئن وُلِد في اليهوديّة فالفُرس أتوا ليسجدوا له. وهو، قبل أن يظهر في الجسد حاز الغلَبة على أعدائه الشياطين وفاز بآيات الانتصار على الوثنيّة.

جميع الشعوب في شتّى أقطار الأرض جحدوا تقاليدَ أجدادهم وكفر الأوثان، وأناطوا بالمسيح رجاءهم؛ إنَّهم يعدّون أنفسهم من أتباعه كما يبدو ذلك للعين البصيرة. فكفر المصريّين لم يتوقّف إلاَّ عندما أقبل إليهم جسديًّا سيّد الكون، وكأنّه على جناح غمامة، وحطّم ضلال الوثنيّة، وردَّهم إليه، وبه إلى الآب. إنّه هو الذي صُلب على عين الشمس والخليقة والذين قتلوه؛ وبموته تحقّق الخلاصُ للجميع، وافتُديَت الخليقة كلّها. إنّه هو حياة الجميع، الذي كحمَلٍ أسلمَ جسده للموت فديةً لخلاص الجميع، وإن ظلّ اليهود غير مؤمنين.

شهادات أُخرى وتأمُّلات في عجائب المسيح

٣٨ – إذا رأوا أنّ ذلك غير كافٍ فُلْيطلُبوا الاقتناع بنصوصٍ أُخرى لديهم. عمّن قال الأنبياء: «إنّي اعتلنْتُ لمنَ لم يسألوا عنّي، ووُجدتُ ممَّن لم يطلبوني. قلتُ هاءنذا هاءنذا لأُمّةٍ لم تدعُ باسمي. بسطتُ يديّ نحوَ شعبٍ عاصٍ. (متى ٦٥: ١ – ٢) (رو ٢٠: ٢٠ – ٢١) من الذي اعتلنَ؟ فليُقَلْ ذلك لليهود! فإذا كان المعتلن هو النبيّ، فَلْيُبيّنوا متى اختبأ ليظهر بعد ذلك. من هو هذا النبيّ الذي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كان خفيًّا وظهر، وبسط يديه على الصّليب؟ ليس هو أحد الصدّيقين، بل هو كلمة الله دون سواه، هو الذي بغير جسد في طبيعته وقد ظهر في جسد وتألّم لأجلنا. وإذا كان هذا أيضاً لا يكفيهم، فليُذْعِنوا لنصوصٍ أُخرى تقدّم برهاناً ليس أقلَّ وضوحاً. فالكتابة تقول: «قووا الأيديَ المسترخيةَ، وشدّدوا الركب الواهنة، قولوا لِفَزعي القلوب تقوَّوا لا تخافوا. هوذا إلهكُم النعمة آتية. مكافأةُ الله حاضرة. هو يأتي ويُخلّصنا. حينئذٍ تتفتح عيونُ العُمْي وآذان الصُّمِّ تتفتّح، وحينئذٍ يطفُر الأعرجُ كالأيّل، ويترنّم لسان الأبكم» (أش ٣٥: ٣ – ٦). ما الذي يستطيعون قوله في هذا، أو كيف يَجْرُؤون أن يُحدّقوا فيه؟ فمن جهة تبشّر النُبوَّةُ بأنّ الله هو الذي يأتي؛ ومن جهة ثانية تدلُّ المُعجزات على زمان مجيئه. فأن يرى العُمْي، ويمشي العُرج، ويسمَع الصُّمّ، وينحَلّ لسانُ البُكم، كل هذا قيل بالنظر الى مجيء الله. فَلْيقولوا متى حدث مثلُ هذه المعجزات في إسرائيل، وأين جرى شيء من ذلك في اليهوديّة؟ نعمان الأبرص شفي. ولكن لا أصمَّ عاد إليه سمعهُ، ولا أعرجَ مشى. إيليّا واليشع أقاما أمواتاً، ولكن ما من أحدٍ وُلِد أعمى واستعادَ بصره، أجلَ إنّه لعملٌ عظيم أن يُبعث الميتُ حيًّا، ولكنّه لا يُشبه مُعجزَ المخلّص. وبما أنّ الكتاب المقدّس لم يُغفل ذكرَ الأبرص ومائت الأرملة، ولو جرىَ أنّ أعرج مشى، وأعمى أبصر لما أغفل ذكرهما أيضاً. وبما أن الكتاب لم يذكر شيئاً من ذلك فمن الواضح أنّ أموراً كهذه لم تحدث سابقاً. إنّها لم تحدث إلاّ عندما أتى كلمةُ الله نفسُه في الجسد. ولكن متى؟ إنّه أتى يومَ مشى العُرْج، ونطق البُكم بوضوح، وسمعَ الصُّمّ، واستعادَ مَن وُلِدوا عُمياً بصرهم. واليهود الذين كانوا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

شهودَ عيان لذلك كانوا يتحدّثون عنه على أنّه لم يحدث مثلُه من قبل: «لم يُسْمَع قطّ أنّ أحداً فتحَ عينَي من وُلِد أعمى. فلو لم يكن هذا الرجلُ من الله لما استطاع أن يفعل شيئاً.» (يو ٩: ٣٢ – ٣٤).

الماسيّا المُنتظَر: حُلم اليهود وتعنُّتهم الوقح

٣٩ – وقد لا يُنكرون الكُتبَ المقدّسة أمام هذا الواقع الواضح، ولكنّهم سيعلنون بصوتٍ جهير أنّهم لا يزالون ينتظرون، وأنّ الله الكلمة لم يأتِ بعد. هذا ما يردّدونه من كل ناحيةٍ بدون أن يخجلوا من وقاحةِ عنادهم أمام الحقيقة الواضحة الملموسة. إلاّ أنّهم سيُخزَون في هذا الموضوع أيضاً أكثرَ ممّا لقوا في غيره من الردّ القاطع، ولن يكون الكلام منّا بل من الحكيم دانيال، الذي يُعلن زمن مجيء المخلِّص الإلهيّ قائلاً: «إنّ سبعين أُسبوعاً حُدِّدت على شعبك وعلى مدينةِ قُدسِك لإفناء المعصية وإزالة الخطيئة، وتكفير الإثم، والإتيان بالبرّ الأبديّ، واختتام الرُّؤيا والنُّبوءة، ومسحِ قُدّوس القدّوسين؛ فاعلم وافهم. إنّه من صدور الأمر بإعادة بناءِ أورشليم الى المسيح الرَّئيس.» (دا ٩: ٢٤ – ٢٥). وقد يجدون في مقاطعَ أُخرى معاذيرَ، فيرجئون ما كُتِب الى المُسْتقبل. ولكن ماذا يستطيعون قولَه أو اختلاقه بالنسبة الى هذه النّصوص؟ فالمسيح مذكورٌ عَيْنًا، والممسوح مبشَّرٌ به لا كإنسان وحسب، بل كقدّوس القدّوسين؛ وأورشليم تثبت إلى محبته، ثمّ نتوقف النبوءة والرُّؤيا في إسرائيل. قديماً مُسِحَ داود وسليمان وحزقيّا، ولكنّ أورشليم والمَقْدِس لم يَزُولا، والأنبياء كانوا يتنبّؤون: جادا وآساف، وناتان، وبعدَهم أشعيا، وهو شع، وعاموس، وغيرهم. وإلى ذلك فإنّ الذين كانوا يُمسَحون

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كانوا يُدعون أناساً قِدّيسين، لا قُدّوسي القدّوسين، ولئن أقاموا برهاناً من الجلاء، وقالوا إنّ أورشليم زالت بسببه، فما قولُهم في الأنبياء؟ ففي تلك الحقبة البعيدة، والشعبُ ينحدرُ إلى بابل، كان هنالك دانيال، وإرميا، وحزقيال، وحجّاي، وزكريّا، وكانوا يتنبَّؤون.

٤٠ – فاليهود إذن يروونَ أساطير، ويتغافلونَ عن العهد الحاضر. متى توقَّفت النُّبوءةُ والرُّؤيا في إسرائيل؟ ألم يكن ذلك الآنَ عندما جاء المسيح، قدُّوس القُدُّوسين؟ وهنالك علامةٌ أُخرى مُهمّة لحضور الإله الكلمة: أورشليم اندثرت، وما من نبيّ يعدُ يتنبّأ، وما من رُؤيا بعدُ يُوحى بها لليهود، وكان ذلك كلّه طبيعيًّا؛ بسبب مجيء من بشَّرت بمجيئهِ الآيات؛ فما من حاجةٍ بعدُ إلى آيات. وإذ كانت الحقيقة قد تجلّت وحضرت، فأيُّ حاجةٍ بعد الى الظلّ؟ ولهذا كانت النّبوءةُ إلى حينَ جاء البرُّ نفسُه، الذي يحملُ خطايا الجميع ويفتديهم. ولئن ثبتت أورشليم هذا الزمنَ كلّه فلكي يألف اليهودُ فيها رموزَ الحقيقة. وعندما أصبح قدّوس القدُّوسين ههنا خُتِمت الرؤيا والنبوَّة بحق، وانتهت مملكةُ اورشليم. وظلّ ملوكُها يُمسَحون إلى أن مُسِح قدّوس القدُّوسين. وموسى نفسه هو الذي يُنبئ ببقاءِ مملكة اليهود إلى هذا التاريخ حيث يقول: «لا يزولُ صَوْلجانٌ من يهوذا ومُشترِعٌ من صُلبهِ حتّى يأتي شِيلو وتُطيعَه الشعوب» (تك ٤٩: ١٠). والمخلّص نفسه يهتف ويقول: «جميعُ الأنبياء والناموس تنبَّأوا إلى يوحنّا» (متى ١١: ١٣). فإذا كان الآن لدى اليهودِ ملكٌ أو نبيٌّ أو رؤيا كان من حقّهم أن يُنكروا مجيء المسيح. ولكن إذا لم يكن بعدُ لهم ملكٌ، ولا لديهم رؤيا، وإذا كانت النبوّةُ قد خُتِمَت، والمدينة والهيكل قد دُمِّرا، فلماذا لا يزالون على غيّهم وتجاوُزِهم؛ فيشاهدون بأعينهم ما

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

جرى، وينكرون المسيح الذي به جرى كل هذا؟ لماذا، وهم يرون الوثنيّين يتخلّون عن أوثانهم، ويُنيطون رجاءهم بإله إسرائيل عن طريق المسيح، يُنكرون هذا المسيحَ المتحدّر بحسب الجسد، من صلب يَسّى والمالكَ من الآن فصاعداً؟ لو كان الوثنيّون يعبدون إلهاً آخر من دون أن يعترفوا بإله إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى، لحقّ لليهود أيضاً أن يدّعوا أنّ الله لم يأتِ. ولكن إذا كان هو الله الذي أعطى الشريعة لموسى، والوعد لإبراهيم، الذي لم يحترم اليهود كلامه، وإذا كان هو الذي يوقرّه الوثنيّون، فلماذا لا يعترفون به، أو بالحرى لماذا يأبون، بملء إرادتهم، أن يروا أنّ الربّ، الذي سبقت الكتُب المقدّسة وبشّرت به، قد تألّق في كلّ الأرض وظهر عليها بجسده، على حدّ قول الكتاب: «الربّ هو الله وقد أنارنا» (مز ١٧ – ٢٧)، وأيضاً: «أرسلَ الربّ كلمته فشفاهم» (مز ١٠٦ : ٢٠)، وأيضاً: «في كل مضايقهم تضايق وملاكُ وجهِه خلَّصهم. بمحبّته وشفقته افتداهم» (اش ٦٣ : ٩).

إنّهم في مرضهم كإنسانٍ أُصيب باختلال عقليّ يرى الأرضَ وقد أنارتها الشمس، وينكرُ الشمسَ التي تُنيرها. فماذا بقي ممَّا يجبُ فِعْلهُ وقد جاء الذي كانوا في انتظاره؟ أن يدعو الوثنيّين؟ لقد سارعَ الى دعوتهم. وَضْع حدٍّ للنبوَّة والمُلْك والرؤيا؟ وهذا ما جرى أيضاً. التنديد بكفر الوثنيّة؟ لقد ندّد به وقضى عليه. قَهْر الموت؟ لقد تلاشى. ما الذي بقي على المسيح أن يفعله ولم يفعَلْه؟ أو ما الذي لم يتمَّ بعدُ لكي يُسرَّ اليهودُ الآن ويرفضوا الإيمان؟ ولكن لم يبقَ لهم، على ما نرى، لا ملك، ولا نبيٌّ، ولا أورشليم، ولا ذبيحة، ولا رؤيا، وكل الأرض مليئة بمعرفةِ الله، والوثنيّون يتخلَّونَ عن كفرهم، ويؤمنون بإله

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

إبراهيم، بالكلمة سيّدنا يسوع المسيح؛ وفي ذلك كلّه دليل واضح للجميع، حتّى لأوقح الناس منهم، على أنّ المسيح أتى، وهو ينير جميع البشر، ويقدّم لهم تعليمه الإلهي والحقيقي في شأن أبيه. بهذه الشهادات وبكثير غيرها مستقاة من الكتاب المقدّس نستطيع أن ندحض آراء اليهود.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل السادس

ضدّ اليونانيّين فلاسفةً ووثنيّين

برهان عقليّ: ملاءمة التجسُّد الكونيّة

٤١ – أمّا اليونانيّون فمن العجبِ أن نراهم يهزَؤُون بما يستحقّ أشدّ الاحترام، وقد عَمُوا عن خِزيهم، في غير وَعيٍ منهم، عندما يقرّبون قرابينهم لأوثانٍ من حجرٍ أو من خشب. وإذ كنّا لا نفتقر إلى حجج لبسطِ تعليمنا، فلنَمْضِ في دحضِ آرائهم انطلاقاً من الأحداث التي نراها نحن. فأيّ حماقةٍ أو شيءٍ ممّا عندنا يستحقّ الهزءَ؟ هل هو في قولنا إنّ الكلمة ظهر في جسد؟ وإنّهم لَيقولونَ قولَنا بان ليس في هذا الحادث أيّ حماقة، إذا كانوا في الحقيقة أصدقاء الحقيقة. وإذا كانوا ينكرون إنكاراً مطلقاً وجود كلمةٍ الله، فإنّهم يتكلّفون أمراً هم في غنى عنه عندما يَهزؤون بما لا يعرفون. أمّا إذا قالوا بوجود كلمةٍ لله، وبأنّه سيّد الكون، وأنّ الآب صنع به الخليقة، وأنّ عنايته تعطي جميعَ الكائنات النورَ والكينونة، وأنّه يسيطر على كل الأشياء، بحيث إنّنا نستطيع اكتشافه من أعمال عنايته، وبه نكتشف الآب. تأَمَّلْ، الا يرتّد عليهم هُزْؤهم وهم لا يعلمون؟! يقول الفلاسفة اليونانيّون إنّ العالم جسمٌ كبير، وهم على

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

حقٍّ في ذلك؛ إذ إنّنا نرى أنّ العالمَ وأَجزاءَهُ تقع تحت الحواسّ. فإذا كان كلمة الله في العالم الذي هو جسم، وإذا أتى في جميع الأجزاء وفي كلٍّ منها، فأين الغرابة والحمق إذا قلنا إنّه أتى في إنسان. إذا كان من غير المعقول أن يكون في جسم، فسيكون من غير المعقول أيضاً أن يكون في الكون، وأن يُنير ويضبط كل شيءٍ بعنايته؛ إذ إنّ الكون هو أيضاً جسم. فإذا كان من الملائم أن يأتي في العالم وأن يعتلن للكون، فسيكون من الملائم أيضاً أن يظهر في جسم بشريّ، وأن يُنيرَ هذا الجسمَ ويُحرّكه؛ إذ إنّ الجنسَ البشريّ هو أيضاً جزءٌ من كلّ. فإذا كان من غير الملائم أن يستخدمَ هذا الجزءَ للتعريف بألوهته، فسيكون من الغريب جداً أن يعتلن بمُجمل الكون (Cosmos).

٤٢ – وهكذا إذا كان الإنسان يُحرّكُ الجسم كلّه ويُنيره، فالذي يرى أنّه من السُّخف أن تكون قدرةُ الإنسان في إصبع الرّجل أيضاً، يكون بالحري هو الأحمق، لأنّه يقول بأنَّ الإنسان يحيط ويعمل بالجسم كلّه، ويرفض أن يكون أيضاً في الجزء منه. كذلك من يَسلِّم ويؤمن بأنّ كلمة الله هو في الكل، وأنّه يُنير الكون ويحرّكه، لا يرى من السخف أن يُنير ويَحرِّك جسمًا بشرياً شخصيًّا. ولكن إذا كانوا يجدون من غير الملائم الكلامَ على ظهور مخلّص في إنسان لكون الجنس البشري مخلوقًا من العدَم، وجب عليهم أن ينزعوه أيضاً من الخليقة لكونها هي أيضاً قد انتقلت من العدم إلى الوجود عن طريق الكلمة. فإذا لم يكن من السُّخف أن يكون الكلمة في الخليقة، مع مالها من بدء، فليس من السُّخف أيضاً أن يكون في إنسان. فما يرونه للكل، يجب بالضرورة أن يروه أيضاً للأجزاء؛ وقد قلت إنّ الإنسان جزءٌ من الكل. فليس إذن غيرَ ملائم أن يكون الكلمةُ في إنسان، وأن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ينال كلُّ شيءٍ منه وفيه النورَ والحركة والحياة: كما يقول علماؤهم أنفسهم: «إذ به نحيا ونتحرّك ونوجد» (أع ١٧: ٢٧) فما الذي يدعو إلى السُّخر إذا قلنا إنّ ما يُقيمُ فيه الكلمةُ بجعله أداة لظهوره؟ لأنّه لو لم يكن فيه لما استطاع أن يستخدمه. ولكن إذا كنا قد سلَّمنا بأنّه في الكلّ وفي الأجزاء، فلماذا يكون من غير المعقول أن يظهر في هذه الأجزاء التي هو فيها؟ فكما أنّه يأتي كاملاً بقوّاته في كل واحدٍ وفي الجميع، موزّعاً كل الأشياء بسخاء، وأن لا يجدَ أحدٌ مسلكه غريباً، لو أنّه أرادُ أن يستخدم الشمسَ أو القمرَ، السماءَ أو الأرض، الماء أو النار، بمثابةِ صوتٍ للكشف عن نفسه أو عن أبيه، إذ إنّه يحتوي كل الأشياء، ويوجد في الوقت نفسه في الكل وفي الأجزاء، ويتراءى بطريقة غير مرئيّة؛ وإذ إنّه كذلك يمنح كل كائن النظام والحياة، ويريد أن يعرفه البشر، فليس من الغريب أن يستخدم الجسمَ البشريّ أداةً لإظهار الحقيقة والتعريف بالآب؛ إذ إنّ البشريّة أيضاً هي جزءٌ من الكل. الروح المنتشرة في الإنسان كلّه، تَبرز بجزء من الجسم، أعني اللسان، ولا أحدٌ على ما أعلم، مستعدّ أن يقول بأنّ جوهر الروح قد نقص منه بسبب ذلك. كذلك الكلمة الموجود في كل الكون، إذا استعمل أداةً بشريّة، لا يُعدّ عمله هذا غيرَ ملائم. فلو كان، كما قلتُ، من غير الملائم أن يستخدمَ جسمًا بمثابة أداة، لكان من غير الملائم أيضاً أن يكون موجوداً في كل الكون.

التجسُّد مَلاءَمة إنسانيّة (أنطروبولوجيّة)

٤٣ – قد يقولون: لماذا لم يختر لظهوره أجزاءً من الخليقة أشرفَ وأنبل، ولم يَستعمل أداةً أجمل كالشمس، والقمر، والنجوم، والنار

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أو الأثير في مكان الإنسان؟ فَلْيَعلموا أنّ الربّ لم يأتِ فقط ليظهر، بل ليعتني أيضاً بالمتألّمين ويُعلِّمهم. فكان يكفي لظهورهِ أن يتجلّى ويَبْهرَ الناظرين؛ ولكن لكي يعتنيَ ويَعلّمَ لم يكن مجرَّدُ مجيئه كافياً، بل كان لا بُدّ لهُ من أن يأتي مُغيثاً للمساكين، وأن يَظهرَ بما يُوافِق حاجاتهم، بحيث لا تُقلِقُهم هذه الظاهرة بتجاوزها حدودَ حاجاتِ الإنسانيّة المعذّبة، وبحيثُ لا يأتي الظهورُ الإلهي بدون جدوى. الإنسان وحده في الخليقة كان على ضلالٍ في موضوع معرفة الله. فلا الشمس، ولا القمر، ولا السماء، ولا الكواكبُ، ولا الماء، ولا الأثير خالفت نظامها. ولكنّها إذ عرفت الكلمة خالقها وملكَها ظلّت على ما خُلقت عليه. ولكنّ البشرَ وحدهم، وقد تحوَّلوا عن الخير، استبدلوا الحقيقةَ بكائناتٍ من عدَم، وحوّلوا التوقيرَ الواجب لله ومعرفته، إلى شياطين، وإلى بشرٍ تَمثّلُوهم في الحجر. وإذ كان من غير اللائق بصلاح الله أن يتغاضى عن مثل هذه الحال، وكان البشر غير قادرين على معرفته محيطاً بالكون ومُهيمناً عليه، اتّخذ لنفسه أداةً جزءًا من الكل، الجسمَ البشريّ، وأتى فيه، حتّى، إذا لم يتمكّنوا من إدراكه في الكل، يستطيعوا إدراكه في هذاء الجزء؛ وإذ كانوا لا يستطيعون أن يرفعوا أعيُنهم نحو قدرته غير المرئيّة، كان في إمكانهم أن يدركوه ويتأمّلوه في كائنٍ يُشْبههم. وإذ كانوا بشراً، كان في إمكانهم، وهو في جسدٍ شبيهٍ بجسدهم، ويعملُ أعمالاً الهيّة، أن يعرفوا أباه، على وجهٍ أسرعَ وأقرب، وذلك عندما يرون أنّ الأمور التي يقوم بها ليست بشريّة، ولكنّها من أعمال الله. وإن كان، في رأيهم، من السُّخف أن يعتلن الكلمة بأعمال الجسد، فسيكون من السُّخف إذن أن يعتلن بأعمال الكون. إنّه في الخليقة ولكنّه لا يشترك في أي عنصر

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

من عناصر الخليقة، فيما تشترك الكائناتُ كلّها في قدرته؛ وهو يستخدم الجسدَ أداةً، ولكنّه لا يشتركُ في أيّ عنصر من عناصر الجسد، فيما أنّهُ يقدّس هو نفسُه الجسد. وأفلاطون، الذي يقدّره اليونانيّون تقديراً عظيماً، يقول بأنّ أبا العالم، عندما يرى عالمه هذا معرّضاً للعاصفة، وعلى شَفا الغَرق في هاوية المُغايَرة (dissimilitude)، يقبض على دفّة النفس، ويعمل على المساعدة وإصلاح الأخطاء. فأين تكون الغرابة إذا قلنا إنّ البشريّة ضلّت الطريق وتقاذفتها الأمواج فأتى الكلمة إليها، وظهر إنساناً لينقذَها من العاصفة بتدبيره وصلاحه؟

التجسُّد ملاءَمةٌ طبيعيّة

٤٤ – وقد يُخجلهم موقفهم فيوافقون على ما نحن فيه، ولكنّهم لا يتورّعون من القول بأنّه إذا أراد الله أن يعلّم البشر ويخلّصهم، فأحرِ به أن يفعل ذلك بمجرَّدِ فعل إرادة، وبدون أن يمسَّ الكلمةُ الجسد، كما فعل ذلك قديماً عندما خلق الكائنات من العدم. على هذا نستطيع أن نردَّ رداً لا التواء فيه ونقول؛ قديماً عندما لم يكن بعدُ شيءٌ. كان فعل الإرادة والقرارُ المجرّد يكفيان لخلق الكون. ولكن بعد إذ وُجد الإنسان ودعت الحاجة الى الشفاء، ليس من العدم، ولكن من الكائنات الحقيقيّة، كان لا بُدّ للمخلّص الطبيب من أن يَفِد الى الكائنات الموجودة، لكي يقدّم الشّفاء لتلك الكائنات. لهذا صار بشراً واتّخذ الجسدَ أداةً بشريّةً. ولو لم تجرِ الأمور هكذا لما استطاع الكلمة أن يكون حاضراً وقد أعوزته الأداة. أنّى له أن يجدها في سوى الكائنات الموجودة التي كانت بحاجة إلى لاهوتهِ بكائنٍ شبيهٍ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بهم؟ لم يكن العدَمُ بحاجةٍ الى خلاص: أمرٌ منه كان كافياً. ولكنّ الإنسان الموجود كان يَفسُدُ ويهلك. ولهذا استخدم الكلمةُ الأداةَ البشريّة بكل حقّ، وامتدَّ بأثره على جميع الكائنات.

لا بُدّ من معرفةِ ما يلي أيضاً: فالفسادُ الذي طرأ لم يبقَ خارج الجسد؛ بل تغلغلَ فيه. فكان لا بُدّ من إنزال الحياة في مكان الفساد؛ وكما أنّ الموت قد جرى في الجسد فقد تحقّقت الحياةُ فيه أيضاً. فلو بقي الموتُ خارجَ الجسد، لبقيت الحياة كذلك في الخارج. ولكن بما أنّ الموت قد امتزج بالجسد، وسيطر عليه بهذا الامتزاج، كان لا بُدّ للحياة من أن تمتزجَ بالجَسد أيضاً؛ وهكذا يكتسب الحياةَ ويُبعدُ الفساد. ولو أقبلَ الكلمةُ خارجَ الجسد، لا فيه، لقهرَ الموت الذي لا يستطيع مقاومةَ الحياة؛ ولكنّ الفساد الذي طرأ على الجسد يلبث فيه. ولهذا اتّخذ المخلّصُ جسداً، حتّى إذا اتّصل هذا الجسد بالحياة تخلّص من الموت الذي كان في طبيعته، وصار غيرَ مائتٍ بالقيامة التي سيقُومها. وإذ كان لابساً الفساد لم يكن في إمكانه القيامة بدون أن يلبسَ الحياة. وإذ كان الموت لا يظهر في ذاته، ولكن في الجسد، فقد اتّخذ المخلّص جسداً لكي يلقى الموتَ في الجسد ويقضي عليه. وعلى كل حال، فكيف كان في إمكان المخلّص ان يُظهر أنّه الحياةُ لو لم يُحْيِ ما كان مائتاً؟ القشّ من طبيعته طُعمةٌ للنار؛ فإذا أبعد أحدٌ النارَ عن القشّ لم يحترق، ولكنّه يبقى أبداً القشّ الذي تُبيده النار لأنّه قشّ، إذ إنّه من طبيعته قابل لأن تلتهمه النار. ولكن إذا غمرَ أحدٌ القش بكميّةٍ كبيرة من الحرير الصّخري (الأميانت) الذي يُقال عنه إنّه يقاوم النار، لم تؤذِ النار القشّ بسبب الغِطاء الذي جعله غير قابل الاحتراق. فيمكن قولُ الشيء نفسه بالنسبة الى

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الجسد والموت. فلو أُزيحَ عنه الموت بوصيّةٍ لظلَّ مع ذلك مائتاً وقابلاً الفساد على سنّة الأجساد. ولكن لكي لا يكون الأمرُ كذلك لبسَ الجسدُ كلمةَ الله الذي لا جسدَ له، وهكذا أصبح لا يخشى الموتَ ولا الفساد، إذ أصبحت الحياةُ لباسَهُ وزال عنه عاملُ الفساد.

الخُلاصة: سبب التجسُّد وآثاره العامّة

٤٥ – فبحّقٍ إذَن اتّخذ كلمةُ الله جسداً، واستخدمَ أداةً بشريّة لِيُحيْيَ الجسد، ولكي يعمل في الإنسان ما يعمله في الخليقة من اعتلانٍ بالأعمال، فيعتلن في كل مكان، ولا يدع مكانًا خالياً من ألوهته ومعرفته. وإنّي أُكرّر ما قلته أيضاً: لقد قام المخلِّص بهذا العمل لكي يملأ جميع الكائنات بمعرفته، كما يملأها بحضوره، وقد قالت الكتابة الإلهيّة: «إنّ الأرض تمتلئ من معرفة الربّ» (أش ١١: ٩). إذا شاء أحدٌ أن يتطلَّع نحو السماء أبصر نِظامه؛ وإن لم يستطع التطلُّع نحو السماء وألقى بنظره على البشر، رأى في أعماله قدرته الفريدة على البشر وعرف أنّه الوحيد بين البشر اللهُ الكلمة؛ وإذا اجتُذِبَ أحدٌ نحو الشَّياطين وهاله منظرُهم، رأى أنّ هذا يطردُهم وأنّه من ثَمَّ سيّدهم؛ وإذا غاصَ أحدٌ في جوهر المياه، وظنَّ أنّها الله – فالمصريّون يعبدون الماء – رأى أنّه يحوّلُها، وأدرك أنّه خالقها. وإذا انحدر أحدٌ الى الجحيم واقترب من الأبطال المنحدرين إليها برهبةٍ مقدّسة وكأنّهم آلهة، رأى قيامة الربّ وانتصاره على الموت، وأدرك أنّ المسيح هنالك أيضاً هو الربّ والإله الحقيقي. فإنّ الربّ مسَّ جميع أجزاء الخليقة وأنقذها من كل ضلال كما يقول القدّيس بولس: «جرَّد الرِئاسات والسَّلاطين وشهَّرهم إذ سيّرهم في موكبه الظّافر»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

(كول ٢ : ١٥)، حتّى لا يضلَّ أحدٌ من بعد، إذ يجد في كل مكان كلمة الله الحقيقيّ. وإذ يُحاط الإنسان هكذا من كل جهة وفي كل مكان، أي في السَّماء، والجحيم، والبشر، ويرى ألوهة الكلمة منتشرةً على الأرض، لا يعود الإنسان إلى الشرود عن الله، فلا يعبد إلهاً سواه، وبه يعرف الآب. لا شكّ أنّ اليونانيّين قد تأثّروا بالحُجج التي قدّمناها؛ ولكن إذا وجدوا أنّ براهيننا لا تكفي خِزيَهم فإنّنا سَنُؤيّد أقوالنا بالأحداث التي لا تخفى على أحد.

اللُّجوء الى الأحداث: – نهاية الوثنيّة والعرافة وسيطرة الفلاسفة

٤٦ – متى أخذ الناسُ في التخلّي عن عبادة الأوثان؟ ألم يكن ذلك عندما أتى كلمةُ الله الحقيقي إلى ما بين البشر؟ متى بطلت العرافة وظهرت فارغة من المعنى عند اليونانيّين وفي كل مكان؟ ألم يكن ذلك عندما اعتلن المخلّص على هذه الأرض؟ متى أيقن الشعراءُ للمرة الأولى أنّ الذين دعوهم آلهةً وأبطالاً لَيْسوا سوى بشرٍ مائتين؟ ألم يكن ذلك منذُ رفعَ آيةَ انتصاره على الموت، وحفظ من الفسادِ الجسدَ الذي اتّخذهُ إذ أقامه من بين الأموات؟ متى أُزْدُريت ضلالةُ الشياطين وهذيانهم؟ الم يكن ذلك عندما ظهر على الأرض الكلمة، قدرةُ الله، ربّ الجميع وسيّد الشياطين، مشفقاً على ضعف البشر؟ متى بُدئ بدَوْسِ فنّ السِّحر وأساليبه؟ أليس بظهور الكلمة بين البشر؟ وبوجيز الكلام: متى أخذت حكمةُ اليونانيّين في الاحتضار؟ أليس ذلك عندما ظهرت حكمةُ الله الأصيلة نفسها على الأرض؟ ففي الزمان القديم شاعت عبادة الأوثان في الأرض المسكونة كلها وفي كل مكان، وكان البشر لا يرونَ آلهةً بمعزلٍ عن الأوثان. أمّا اليوم فقد

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تخلّى البشرُ، في جميع أقطار الأرض، عن عبادةِ الأوثان الخُرافيّة، واتّخذوا من المسيح ملاذاً، وعبدوه إلهاً، وعرفوا به الآب الذي كانوا يجهلونه. ومن العَرِيب العجيب أن يكون على الأرض ألوف المذاهب المختلفة، وأن يكون لكلّ بُقعةٍ وثنُها الخاص، وأنّ ما كانوا يدعونه إلهًا لم يكن قادراً على الامتداد إلى البُقعة المُتاخِمة لحملِ مَن في الجوار على عبادته، فينحصر تكريمه ضمن حدود بقعتهِ – إذ لم يكن أحدٌ يعبُد إلٰه الجوار، فكان لكل جماعة وثنُها الخاص، وفي يقينها أنّه ربُّ الجميع – أمّا المسيح فهو الوحيد الذي انتشرت عبادته عند جميع الناس. فما عجزت عن تحقيقه الأوثان ولم تَقْوَ على إقناع سكّان الجوار، حقّقه المسيح: لقد أقنع، لا الشعوبَ المجاورة وحسبُ، بل كل الأرض، بعبادة الربّ الواحد، وبه الله أبيه.

٤٧ – كان العالم قديماً مليئاً بخزعبلات الوسطاء ناقلي كلام الآلهة (ORACLES): جماعة دلف (Delphes)، ودودوني (Dodone)، وبيوتيا (Béotie)، ولوكيا (Lycie)، وليبيا، ومصر، وجماعة كابيروس (Cabires) وبيثيا (Pythie)، وكانت مُخيّلات الناس مرهونةً لأقوالهم؛ ولكن الآن، وقد بُشِّر بالمسيح في كل مكان، توقّفت خُزعبلاتهم، وخلت البلاد من العرّافين. وكانت الشياطينُ قديماً متسلِّطةً على مُخيّلات الناس، مُعشِّشةً في الينابيع، والأنهار، والأشجار، والصُّخور، وكانت هكذا تبعث الهلعَ في عامّة الناس؛ ولكن الآن، وقد جرى ظهورُ الكلمة الإلهيّ، تلاشت هذه التخيُّلات؛ إذ إنّ الإنسان أصبح يطرد أشباحها بإشارة صليب مجرّدة. كان الناسُ قديماً يتّخذون من زفس وكرونس وأبولّو والأبطال الذين يُشيد الشعراء بذكرهم آلهةً يجلُّونهم على ضلال؛ ولكنها الآن،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وقد ظهر المخلّص من البشر، عرفوا أن ليس هؤلاء سوى أُناسٍ مائتين؛ والمسيح وحده عُرِف بين البشر إلٰهَ الإلٰهِ الحقيقيّ، الإلٰه الكلمة. وماذا أقول عن السِّحر الذي كانوا به جدَّ مُعجبين؟ قبل مجيء الكلمة كان له الأثرُ البليغ عند المصريّين والكلدانيّين والهنود، وكان يأخذُ بقلوبِ النظّارة وعقولهم؛ ولكن بحضور الحقيقة وظهور الكلمة تبيّن لها ضلالُها وانقلبت من حالٍ الى حال. أمّا الحكمة الهلّينيةُ، وروعة كلام الفلاسفة، فإنّي أظنّ أن لا أحد يطالبنا بخطابٍ في هذا الموضوع، لكون هذه المعجزة في عيون الجميع: وهي أنّ حكَماء اليونان كتبوا كتاباتٍ كثيرةً، ولم يستطيعوا أن يُقنِعوا بعض جيرانهم باعتناقِ مذهبهم في خلود الحياة الفاضلة، أمّا المسيح فقد استطاع بكلامٍ بسيط، وبجماعة قليلة وبعيدة عن الفلسفة، أن يقنع جماعات كثيرةً من الناس، في شتى أقطار الأرض، بأن يحقروا الموت، ويفكّروا في الخلود، وأن يُشيحوا بأبصارهم عن الأمور الزمنيّة، ويتوجهّوا الى الأزليّة، وأن لا يُقيموا وزناً للمجد الأرضيّ، طامحين الى المجد السَّماوي دون سواه.

٤٨ – كل ما قلناه لم نقله عابثين، وهو يجد في الواقع برهاناً على حقيقته. فَلْيدنُ من أراد الدُّنوَّ، وليتأملّ من جهة شهادةَ الفضيلة عند عذارى المسيح، وعند الشبّان الذين يعدّون العفّة واجباً مقدَّساً، ومن جهة أخرى الايمانَ بالخلود عند جيوش شهداء المسيح. فليدنُ مَن يريدُ اختبارَ رسوخ ما قلنا وليعْمَدْ، في وجهِ خزعبلات الشياطين، وكذب الناطقين بالغيب، وخوارق السّحر، إلى استعمال إشارة الصّليب التي طالما حطّوا من شأنها، متفوّهاً باسم المسيح لا غيرُ؛ فيرى بذلك أنّ الشياطين تتوارى، والناطقين بالغيب يصمتون والسِّحر والشَّعوذات

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تتلاشى. من يكون هذا المسيح الذي يمحو اسمُه وحضورُه هذه الأمور كلّها وفي كل مكان، الذي يُسيطر على الجميع، والذي يملأ الأرض كلّها من تعليمه؟ فليُجبِ اليونانيّون الذين يتشدّقون هازئين ولا يخجلون. فإذا كان إنساناً، فكيف استطاع إنسانٌ واحدٌ أن يتفوّق على قدرة جميع آلهتهم، وأن يُظهرهم بقدرته خالين من كل حقيقة؟ وإذا قالوا إنّه كان ساحِراً، فكيف يُبيدُ ساحرٌ واحدٌ كل السِّحر، ولا يزيدهُ بالأحرى قوّة وثباتاً؟ لو أنّه تغلّبَ على السَّحَرة وهو إنسان، أو لو لم يَقْوَ إلاّ على واحدٍ منهم لعدّوهُ بحقٍّ أُقدرَهم بسبب إنجاز لم يكن في إمكان غيره. ولكن إذا انتصر صليبُه على السِّحر بأجمعه، وعلى اسم السّحر نفسه، كان واضحاً أنّ المخلّص لم يكن ساحِراً، هو الذي كانت تهربُ منه شياطين السَّحَرة وكأنّه سيّدها وربّها. فَلْيَقُل لنا من هو، أولئك اليونانيّين المحمولون دائماً على الهزء والسُّخرية! قد يقولون إنّه كان هو أيضاً شيطاناً من الشياطين، ومن هنا كانت له هذه القدرة. ولكنّهم بقولهم هذا يتعرّضون للسُّخر؛ وفي ما قلناهُ آنفاً ما يُخزيهم. فكيف يكون شيطاناً مَن يطردُ الشياطين؟ ولو اقتصرَ عمله على طرد بعض الشياطين لأمكنَ القول بأنّه يستمدّ القدرة على ذلك من رئيس الشياطين كما كان اليهود يقولون مُستخفيّن. ولكن إذا كان اسمه يطرد رعونةَ الشياطين ويهزمها فذلك دليل واضح على أنّهم في قولهم هذا أيضاً مُخطئون، وأنّ المسيح، ربّنا ومخلّصنا، ليس قوّةً شيطانيّة. وهكذا فإذا لم يكن المخلّص بشراً وحسبُ، ولا ساحراً، ولا شيطاناً، فإنّه، بقدرته الإلهيّة الذاتيّة، قضى على تخيُّلات الشعراء وغشّاها، كما قضى على أوهام الشياطين وحكمة اليونان، وكان بحقٍّ على الجميع أن يعترفوا بأنّه ابن الله، الكلمة، وحكمة الآب وقدرته.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أمّا أعمالُه فليست بشريّةً، ولكنّها فوق طاقة البشر. هي تُظهِر بوضوح أنها من الله، سواء نُظِر اليها في ذاتها، أو مقارنةً بأعمال البشر.

٤٩ – هل وُجِد إنسانٌ يوماً اتّخذَ له جسداً من عذراء منفردة؟ أو أيٌّ من البشر أبرأَ من مثل هذه الأمراض كما فعل ربُّ البشر أجمعين؟ من استطاع أن يردَّ الناقصَ إلى المنقوص أصلاً ويردّ البصر الى المولود أعمى؛ أَلَّه اليونانيّون أَسْكليبيس لأنّه مارس مهنةَ الطبّ وأكبَّ على الأعشاب يُعالجَ بها الأوجاع الجسديّة، ولم يكوّنها هو من الأرض، ولكنّه اكتشفها بالعلم الذي جادت به عليه الطّبيعة. وما هذا إذا قوبلَ بما فعلَه المُخلِّص؟ إنّه لم يكتفِ بشفاءِ جرح بل صاغ الطّبيعة وأعاد الجسدَ الى كماله. وعبَدَ اليونانيّون هيركليس إلهاً لأنّه حارب بشراً من جنسه وقهرَ بالمكيدةِ وحوشاً. ولكن ما هذا إذا قيسَ بمآتي الكلمة، الذي أبعدَ عن البشر الأمراض والشياطين والموتَ نفسه؟ لقد وقّروا ذيونيوس لأنّه علّم بني البشر السُّكرَ. ولكنّ المخلّص ربّ الكون الذي علّم الناسَ القناعة رشقوهُ بهُزئهم. ولنكتفِ بهذا، وننتقلْ إلى سائر معجزات ألوهة المسيح. عند موت أيّ إنسان انحجبت الشمسُ وزُلزِلت الأرض؟ ها إنّ البشر يموتون الى هذا اليوم، وَهم منذ البدء يموتون، فمتى حدث مثل هذا المُعجز عند موتهم؟ وإذا تجاوزنا الأعمال التي قام بها جسدُه، ورُحْنا نذكر ما قامَ به بعد قيامَة جسده، نقول تعليم مَن البشر ظلّ على مرّ الأجيال هو هو، وسيطر على الأرض من أقصاها إلى أقصاها، بحيث انتشرت عبادته في كل المسكونة؟ وإذا كان المسيح، في نظرهم، بشراً، لا كلمة الله، فلماذا لا تضعُ آلهتُهم حداً لانتشار عبادته حتّى في أمكنة سيطرتهم؛ ولماذا، على عكس ذلك، نرى أنّ الكلمة يجعلُ بحضوره وتعليمه حداً لعبادتهم وينزع النقاب عن باطلهم؟

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

انتشار تعليم المسيح العجيب وقوّته الإلهيّة

٥٠ – ملوك وجبابرة كثيرون ظهروا قبله على الأرض. وحُكماء وسحرة كثيرون أتى على ذكرهم تاريخ الكلدانيّين والمصريّين والهنود. مَن منهم، لا أقول بعد موته، بل في أثناء حياته، استطاع أن يُظهر من القوّة ما ينشر تعليمه في كل الأرض، ويحوّل هذه الجماهير الغفيرة من تقوى الأوثان الخرافيّة، كما حوّلها مُخلِّصنا إليه وأنقذها من عبادة الأوثان؟ لقد وضع فلاسفة اليونان آثارًا كثيرة باقتناع وفنّ؛ فهل كان لأثرٍ من تلك الآثار ما كان لصليب المسيح من إفحام؟ لا شك أنّه كان لأقيستهم، قبل وفاتهم، ما يُقنع؛ ولكن، حتّى في أثناء حياتهم، ما كان يبدو قويًّا لديهم، كان يبعث على التّنافس، وعلى النقاش والخاصم في ما بينهم. ولكن كلمة الله، ويا للعجب، استطاع بدروسٍ تتّسم ببساطة التعبير، أن يحجبَ فلسفة أعظم الفلاسفة. لقد لاشى تعاليمهم وجذب إليه الجميع فامتلأت كنائسه. والذي يُثيرُ العجب أنّه وهو سائر الى الموت كإنسان، لاشى خُطبَ الحكماء الرّنّانة في شأن الأوثان. فمَن استطاع يوماً أن يطردَ الشياطينَ بموته؟ أو أيُّ موتٍ هالَ الشياطين كموت المسيح؟ فما إن يُذكرُ اسم المخلّص في مكانٍ ما حتّى يغادره جميع الشياطين. مَن قضى على الأهواء في نفوس البشر حتّى تحوّل الفُسّاق من فسقهم الى الطهارة، ورمى القتلةُ سيوفَهم، وتحوّلَ الهيّابونَ إلى شُجْعان؟ ما الذي حمل البرابرة وسكّان الأرض الوثنيّة على التخلّي عن سُخفهم وتبنيّ أفكار السلام سوى الإيمان بالمسيح وعلامة الصليب؟ ما الذي بثّ في البشر الإيمانَ بالقيامة كما يثّه صليبُ المسيح وقيامةُ جسدهِ؟ ومع ما لليونانيّين من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تُرَّهات لم يستطيعوا التوصُّل الى تصوُّر قيامةٍ لأوثانهم، هم الذين جهلوا تمامَ الجهل أنّه من الممكن للجسدِ أن يُبعثَ حياً بعد الموت. وقد يكونون على حقّ في ذلك لأنّ هذه الفكرة وسمت وثنيّتهم بالعجز وأتاحت للمسيح إمكان الاعتلان للجميع بأنّه ابن الله.

٥١ – أيّ إنسان، بعد موته، أو مدّةَ حياته، علّمَ التّبتُّلَ وعدَّ البشر قادرين على التزامه؟ والمسيح مُخلِّصنُا وملك الجميع كان من القدرة في تعليمه لهذا الموضوع بحيثُ إنّ أحداثاً لم يبلغوا السنّ القانونيّة ينذرون نذر العفّة الذي يفوق الشريعة. أيّ إنسان عرف أن يخترق الآفاق ويجتاز المسافات، فيمضي إلى الإسكوتيّين (Scythes)، والأحباش، والفُرس، والأرمن، والغوط، إلى أولئك الذين قيل عنهم إنّهم يسكنون وراء الأوقيانوس، وبَعدَ هيركانيا (Hyrcanie)، أو إلى المصريّين والكلدانيّين، تلك الشعوب الخاضعة للسِّحر ولشتى أنواع الخُرافات، وذات الأخلاق المتوحِّشة، لكي يعظ بالفضيلة والعفّة، والتخلّي عن عبادة الأوثان، كما فعل ربُّ الجميع، قدرةُ الله، سيّدنا يسوع المسيح؟ لم يَعِظ فقط برسلهِ، ولكنّه أقنع تلك الشعوب أيضاً في نفوسها حتّى تعدلَ عن التوحّش في الأخلاق، وعن عبادةِ آلهة آبائها، وتتبعَهُ، وبه تعبد أباهُ، فقديماً عندما كان اليونانيّون والبرابرة يمارسون الوثنيّة كانوا حرباً بعضهم على بعض، وكانوا يَعْنُفون على أبناءِ جلدتهم. لم يكن من الممكن اجتياز البرّ أو البحر بدون سيف في اليد، بسبب ما كان بينهم من قتالٍ شديد. كانوا يقضون حياتهم تحت السّلاح، واستعاضوا عن العَصا بالسّيف، ولم يكن لهم معينٌ سواه؛ ومع ذلك، كما قلتُ، كانوا يخدمون الأوثان، ويقرّبون الذّبائح للشياطين؛ ولم تكن خرافة الأوثان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لتُصلِح من أمرهم شيئاً. ولكنّهم عندما تحوَّلوا الى مذهب المسيح، كانت أُعجوبةُ تحوّلهم عن عنف التقاتل، والتَّقتيل، برادعٍ من ضميرهم، فتركوا فكرة الحرب، وأصبح كل شيء لديهم سَلاماً ومحبَّة.

٥٢ – من فعلَ ذلك، ومن جمع المتباغضين على التَّحابّ والسلام، سوى ابن الآب المحبوب، مخلّص الجميع، يسوع المسيح الذي، في محبّته، تحمّل كل شيء لأجل خلاصنا؟ وقد تنبّأ الأنبياء منذ عهدٍ عهيد عن هذا السلام الذي يُقيمه وقد وردَ في الكتاب المقدّس: «يضربون سيوفهم سِكَكاً وأسنّتَهم مناجلَ فلا ترفعُ أُمَّةٌ على أُمَّةٍ سيفاً ولا يتعلّمون الحربَ من بعدُ» (أش ٢: ٤). وليس الأمرُ مُسْتغرباً إذ لا يزال البرابرة اليوم، بطبيعتهم ذات الأخلاق المتوحّشة، وتقريبهم الذبيحة لأوثانهم، يتناحرون في ما بينهم تناحراً شديداً، ولا يُلقون سيفهم عن جنبهم البتّة. ولكنّهم عندما يسمعون تعليم المسيح يتخلّون في الحال عن الحرب ويتحوَّلون الى الزّراعة، وينزعون السيف من أيديهم ليرفعوها للصلاة. وهكذا عوضاً عن أن يتحاربوا في ما بينهم، يتسلّحون بالسلاح الذي يقهر إبليس والشياطين، أعني الانضباط وفضيلة النفس. تلك علامةٌ لألوهة المخلّص: ما لم يستطع البشر أن يتعلّموه من الأوثان، تعلّموه منه، وفي ذلك برهانٌ على عجز الشياطين والأوثان. لقد عرف الشياطينُ ضعف البشر فراحوا يُنهضون بعضهم على بعض في حروب داخليّة حتّى لا يرتدُّا عليهم إذا ما توقّفت تلك الحروب. هكذا يفعل تلاميذ المسيح. الذين لا يتحاربون في ما بينهم، يسيرون صفًّا واحداً ضدّ الشياطين بأخلاقهم وسلوكهم الفضيل. إنّهم يهزمون الشياطين، ويستخفّون برئيسهم إبليس، بحيث

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يلزمون العفّة في شبابهم، والصبرَ عندَ الشدائد، والثبات في المقاومة؛ وإنّهم يتحمَّلون الشتيمة، ولا يهتمون للسرقات؛ ومن أعجب الأمور أنّهم لا يُبالون بالموت، ويُستشهدون لأجل المسيح.

٥٣ – وللدلالة على ألوهة المخلّص أقول: مَن مِن البشر قديماً – أيُّ إنسانٍ أو ساحِر، أو طاغية، أو ملك – استطاع أن يأخذ على عاتقه مغامرةً كهذه، فيعلن الحرب على الوثنيّة كلّها، وعلى جميع جيوش الشياطين، وعلى سِحْر اليونان وحكمتهم، وهي في أوج قوّتها ونفوذها وهيمنتها على البشر أجمعين، ويناهض كل ذلك باندفاعٍ فريد، كما فعل ذلك ربّنا كلمة الله الحقّ؟ فقد دحض بطريقة خفيّة، ضلالَ كل واحدٍ، وقاومهم منفرداً، فأبعدهم عن الضلال، بحيثُ إنّ الذين كانوا يعبدون الأوثان، أصبحوا الآن يدوسونها بالأرجُل، والذين كانت تعاليم السِّحر تُسكرهم، أصبحوا الآن يحرقون كُتُبهم، وأصبح الحكَماء يفضلّون تفسير الأناجيل على أيّ شيء آخر. ومَن كانوا يسجدون لهم أصبحوا طيَّ الإهمال؛ والمصلوب الذي كانوا يسخرون منه أصبحوا يعبدونه مسيحاً ويعترفون بأنّه الله. والذين كانوا يقولون بأنّهم آلهة، أصبحوا يُطردون بإشارة الصليب، أمّا المخلّص المصلوب فقد أعلنته الأرض كلّها إلهاً وابنَ الله. الآلهة الذين كان اليونانيّون يعبدونهم، طردوهم من عندهم وكأنّهم مَخزاة؛ وإذا تقبّلوا تعاليم المسيح سلكوا سلوكاً أفضلَ من سلوك هؤلاء. فإذا كانت هذه الأحداث أو شبيهاتُها أُمورًا بشريّة فلْيُبَرْهِن على أنّه جرى مثلُها من قبل. أمّا إذا كانت هذه الأحداث تبدو أو بالحري تكون غير بشريّة أي إلهيّة فلماذا يُقيم الكفّار على كُفرهم فلا يعترفوا بالسيّد الذي حقّقها؟ شأنهم في ذلك شأن الذين لا يكتشفون الخالق من الخلائق

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

التي خلقها فلو عرفوا أُلوهةَ قدرتهِ على كلّ شيء لاعترفوا أيضاً بأنّ الأعمال التي عملها المسيح بجسدهِ ليست أعمالاً بشريّةً، بل أعمال مخلص الجميع، اللهِ الكلمة. ولو عرفوها «لمَا صلبوا ربَّ المجد» (١كو ٢: ٨)، على حدّ قول بولس.

النتيجة: أثر التجسُّد الشامل

٥٤ – من يتَمنَّ أن يرى الله الذي هو بطبيعته غير مَرْئيّ ولا يمكن أن يُرى مُطلقاً، يعرفْهُ بأعماله؛ وكذلك من لا ترَ روحُه المسيح فليطلُبْ معرفته بأعمال جسده، وليتحقَّق هل هي أعمالُ إنسان أو أعمال الله. فإن كانت أعمال إنسان فلْيهزأ بها؛ ولكن إذا ثبتَ له أنّها ليست لإنسان، بل لله، فليكفَّ عن الهُزء بما لا يُهْزأ به ولينظر بإعجاب إلى أنّ الحقائق الإلهيّة ظهرت لنا بأسلوب بهذه البساطة، إلى أنّ عدم الموت شمل الجميع بالموت، وأنّ تجسُّد الكلمة عرّفنا بالعناية العامّة، وبكلمة الله نفسه الذي هو القائد والإله. فقد صار بشراً لكي نُصَيَّر آلهة؛ وهو نفسه صار مرئيًّا بجسدهِ لكي يُصبحَ لنا تصوُّرٌ عن الله غير المرئيّ؛ وقد تحمّل هو نفسه إهانات البشر لكي يكون لنا نصيبٌ في عدم الموت. لا شكّ أنّه لم يلحقه أيُّ ضررٍ لكونه غير قابل الألم والفساد، هو كلمة الله نفسه؛ ولكنّه في عدم قبوله الألم كان يحفظ البشر المعذّبين وينتشلهم من الخطر عندما كان يتحمّل كل ما يتحمَّل. وبكلمةٍ موجزة كانت أعمال المخلّص التي تمكّن من القيام بها بتجسُّدهِ، كانت هكذا عظيمة حتّى إنّ الذي يروم سَردها يكون أشبه بمن يتأمَّلُون مساحة البحر ويحاولون أن يحصوا عدد أمواجه. وكما أنّه لا يمكن أن يُحيط البصرُ بجميع الأمواج، لأنّها، وهي تتلاحق

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في مدّها وجزرها، تسبق لَمْح من يحاول إحصاءها، كذلك من يحاول الإحاطة بجميع أعمال المسيح في الجسد، يثبت له عجزُه عن احصائها حتّى في الفكر، لأنّ ما يتجاوز تفكيره منها هو أبداً أكثر جدًّا ممّا يحسبُ أنّه أحصاه. فمن الأفضل إذن أن لا تُحصَر المعالجةُ في ما يقعُ تحت النظر وما يستحيل التعبيرُ عن بعضه، بل أن نتوقّف عند واحدٍ منها، تاركين لك التأمّل في مجملها فجميعها معجزاتٌ لا يختلف بعضها عن البعض الآخر، وحيثما نُلقِ النظر يَعْرُنا الدهش إذ نلمس ألوهة الكلمة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

النّتيجة العامّة

٥٥ – بعد كل ما قيل يجب أن تعلم هذا، وتُرسِّخهُ في ذهنك خُلاصةً لما لم يُقَلْ أيضاً: تأمَّل بإعجاب كيف أنّه منذُ مجيء المسيح توقّف نموُّ الوثنيّة، بل تضاءلت وأخذت في الزوال شيئاً فشيئاً. وفلسفة اليونان أخذت في التقلُّص، وسارت نحو الزوال؛ والشياطين لا يخدعون أحداً بخزعبلاتهم، وسحرهم، وعِرافتهم؛ وإذا تجرَّؤوا على أمرٍ ما أخْزَيْتهم إشارةُ الصليب. ولكي أعبّر بكلمة واحدة، تأمّل كيف ينتشر تعليمُ المخلّص في كل مكان، فيما تنهار الوثنيّة كما ينهار كلُّ ما يقاوم إيمان المسيح، ويندثر يوماً بعدَ يوم. تأمَّل ذلك واعبُد المخلّص الإله الكلمة القدير واجعله فوق الجميع، واشجُبْ جميع الذين يقضي عليهم ويُزيلُهم. وكما أنّ الشمس، عندما تشرق، تتراخى الظُّلمات، وتطرد ما أفلت منها هنا وهناك، كذلك عندما ظهر الإله الكلمة تراخت ظلماتُ الأوثان وانتشر نور تعليمه في جميع أقطار المسكونة. عندما لا يظهر ملكٌ، في مكانٍ ما، ويبقى داخلَ منزله، كثيراً ما ينهض في الرعيّة أناس مُتمرِّدون، فيغتنمون فرصة غيابه ليُنادوا بأنفسهم ملوكاً، ويتمكّن احد المحتالين منهم ويخدعُ العامّة كما لو كان ملكهم، فينخدع الناس باللَّقب؛ إنّهم يسمعون أنّ هنالك ملكاً ولكنّهم لا يرونه، لأنّهم لا يستطيعون دخولَ منزله. ولكن عندما يخرج الملك الأصيل ويظهرُ يُخزي حضوره إفك المتمرّدين؛ وعندما يشاهدُ الناسُ الملك الحقيقيّ، يتخلّون عن الذين خدعُوهم من قبل. هكذا كان الشياطين يخدعون البشر مُستأثرين بالتكريم الواجب لله؛ وعندما ظهر كلمة الله في جسد وعرّفَنا بأبيه، زالت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

خديعةُ الشياطين، وحوّل الناسُ أبصارهم نحو الإله الحقيقي كلمة الآب، وتحوّلوا عن الأوثان، واعترفوا بالإله الحقيقيّ. إنّه لَبُرهانٌ على أنّ المسيح هو الله الكلمة وقدرة الله. وبما أنّ الأمور البشريّة تزول، وكلمة المسيح تبقى، فمن الواضح للجميع أنّ ما يتوقّف وقتي، ولكنّ من يبقى هو الله وابن الله الحقيقي، كلمته الوحيد.

٥٦ – هذا ما نقوله بوجيز الكلام، كما لو كان عرضاً بسيطاً أو مخطَّطاً إجمالياً للإيمان بالمسيح ولظهوره الإلهيّ من أجلنا، ونقدّمه لك يا صديق المسيح. وليكن لك طريقاً، إذا قرأت نصوص الكتاب المقدّس، إلى إعمال فكرك فيها، فتقبس منها بطريقة أكمل وأوضح صحّة ما قلناه لك. هذه الأقوال فاه بها وكتبها لاهوتيّون بوحيٍ من الله؛ ونحن، وقد لَقِنّاها من اللاهوتيّين معلّمينا الذين أصبحوا هم أيضاً شهوداً للاهوت المسيح، ننقلُها إلى رغبتك في العلم، كما وصلت إلينا. ستطّلع أيضاً على ظهوره الثاني لأجلنا، ظهوره المجيد والإلهيّ جدًّا. عندما يأتي، لا في الضَّعة، بل في المجد الذي له، ولا في الحقارة، بل في العظمة التي هي من ميزاته؛ عندما يأتي، لا ليتألّم، بل ليقدّم للجميع ثمرة صليبه، أعني القيامة وعدم الموت؛ عندما لا يُدان، بل يَدين جميع البشر بحسب ما يكون قد عمل كل واحدٍ في جسدهِ من خير أو شرّ؛ عندما يكون نصيبُ الصالحين ملكوت السماوات، ونصيب الأشرار النار الأبديّة والظُّلمات البرّانيّة. هذا ما أعلنه الربُّ نفسه: «أقول لكم إنّكم منذُ الآن تُبصرون ابن البشر جالساً عن يمين القدرة، وآتياً على سحابِ السَّماء» (متى ٢٦: ٦٤) ولهذا فالمخلّص الكلمة يحذّرنا من ذلك اليوم ويقول: «اسْهَروا إذن لأنكم لا تعلمون في أيّ وقتٍ يأتي سيّدكم» (متى

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٤ : ٤٢). والطوباويّ بولس يقول: «لا بُدَّ أن نظهر جميعُنا أمامَ منبر المسيح، لينالَ كل واحد على حسبَ ما صنعَ بالجسدَ، خيراً كان أم شرًّا» (لو ٢ : ١٠).

٥٧ – وفضلاً عن دراسة الكتاب المقدّس والعلِّم الحقيقيّ، لا بُدَّ من حياةٍ صالحةٍ، ونفس طاهرة، والفضيلة بحسب المسيح، لكي تستطيع الروح، في سيرها هذا، الحصول على ما ترغبُ فيه؛ إذ إنّه بدون فكرٍ طاهر، والاقتداء بحياة القدّيسين، لا يستطيع أحدٌ أن يفهم كلامَ القدّيسين. إذا أراد أحد أن يُبصر نور الشمس، يجب عليه أن يمسحَ عينَه ويُنيرها، ويطهّرها حتّى تصير شبيهةً بالشيء الذي ترغبُ فيه، فإذا صارت كذلك تمكّن من رؤية نور الشمس؛ أو إذا أراد أحد أن يشاهد مدينةً أو منطقةً، وجب عليه أن ينتقل إلى المكان لكي يراها؛ وهكذا فمن أراد أن يفقه فكر الله وجب عليه أوّلاً أن يطهّر نفسه ويغسلها بسلوك حياته، وأن يتقرّب من القدّيسين بالاقتداء بأعمالهم، حتّى إذا اتّحد بهم بسلوك حياته أدرك ما أوحى به إليهم الله، فيرتبط بهم، وينجو من الخطر الذي يهدّد الخطأة، ومن النار المُعدَّة لهم يوم الدينونة، حتّى ينال ما أُعِدَّ للقدّيسين في ملكوت السماوات «ما لم ترهُ عين، ولا سمعت به أُذن، ولا خطر على قلب بشر ما أعدّه للذين يُحبّونه» (١كو ٢ : ٩) الذين يعيشون على الفضيلة، ويحبّون إلههم وأباهم»، في المسيح ربّنا الذي به ومعه يجب الإكرام والإجلال لهذا الآب مع هذا الابن، في الروح القدس إلى دهر الدهور

آمين

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فهرس

حياة القدّيس أثناسيوس ٧

وآثاره ٨

تمهيد: وحدة العمل الإلهيّ ١١

الفصل الأوّل: مقدّمات تجسُّد الكلمة في تدبير الخلاص ١٣

ضرورة افتداء البشر وموافقته ١٨

الفصل الثاني: تجسُّد الكلمة انتصار على الموت

وموهبة عدم الفساد ٢١

الفصل الثالث: تجسُّد الكلمة على أنّه إصلاح للصّورة في الإنسان،

وموهبة المعرفة الفائقة الطبيعة ٢٥

الفصل الرابع: قيمة تجسّد الكلمة الخلاصيّة ٣٣

اتّحاد اللوغس بالجسد البشريّ ٣٣

ذبيحة الصليب ٣٧

قيامة المسيح ٤٤

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الخامس: ضدّ اليهود العديمي الإيمان ٥٥
تجسّد المسيح وموته: شهادات وبراهين ٥٥
تفصيل خطابّي لهذه الشهادات والبراهين ٥٨
شهادات أُخرى وتأمُّلات في عجائب المسيح ٦١
الماسيّا المُنتظر؛ حُلم اليهود وتعنُّتهم الوقح ٦٣
الفصل السادس: ضدّ اليونانيّين فلاسفة ووثنيّين ٦٧
برهان عقلي: ملاءمة التجسُّد الكونيّة ٦٧
التجسُّد ملاءمة إنسانيّة ٦٩
التجسُّد ملاءمة طبيعيّة ٧١
الخلاصة: سبب التجسُّد وآثاره العامّة ٧٣
انتشار تعليم المسيح العجيب وقوّته الإلهيّة ٧٩
النتيجة: أثر التجسُّد الشامل ٨٣
النتيجة العامّة ٨٥

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

صدر حتّى الآن، في سلسلة «**أقدم النصوص المسيحيّة**»:

أوّلاً: سلسلة النصوص اللاهوتيّة

١ – **اقليمندوس الرومانيّ. راعي هرماس**
تعريب الأب جورج نصّور

٢ – **القدّيس باسيليوس الكبير: مقال عن الروح القدس**
تعريب الأرشمندريت أدرياوس شكّور ق. ب.

٣ – **مار أفرام السريانيّ: منظومة الفردوس**
تعريب الأب روفائيل مطر اللبنانيّ

٤ – **يوحنّا الذهبيّ الفمّ: في أنّ الله لا يمكن إدراكه**
عرّبه وقدّم له الأب جورج خوّام البولسيّ

٥ – **غريغوريوس النزينزيّ: الخطب اللاهوتيّة**
عرّبه وقدّم له الأب حنّا الفاخوري

٦ – **غريغوريوس النيصيّ: حياة موسى أو الكمال في مجال الفضيلة**
تعريب الأب حنّا الفاخوري

٧ – **القدّيس أثناسيوس الإسكندريّ: في تجسّد الكلمة وظهوره بالجسد من أجلنا**
تعريب الأب حنّا الفاخوري

ثانيًا: سلسلة النصوص الليتورجيّة

١ – **الديداكيّة. التقليد الرسوليّ، نافور ادي وماري خولاجي سيرابيون. عهد الرب**
تعريب الأبوين جورج نصّور ويوحنّا تابت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢ – **كيرلّس الأورشليميّ: العظات**
تعريب الأب جورج نصّور

٣ – **ويلي رورودورف: السبت والأحد في تقليد الكنيسة**
(نصوص من القرن الأوّل حتّى القرن السابع)
تعريب الأخت مارسيل هدايا

٤ – **القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ: ثماني عظات في المعموديّة**
عرّبه الآباء حنّا الفاخوري والأب جوزف معلوف والأب مشير عون

٥ – **إيجيريا: يوميّات رحلة**
نقلها الى العربيّة الأب نعمة الله الحلو، الراهب اللبنانيّ
ودقّق فيها ونسّقها وعلّق عليها الأب جورج باليكي البولسيّ

ثالثًا: سلسلة النصوص الكتابيّة

رابعًا: سلسلة النصوص النسكيّة

١ – **كتاب المراقي:** عرّبه عن السريانيّة المطران فرنسيس البيسريّ

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

A.T.I.M.E.

رابطة الكليات والمعاهد اللاهوتية في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي	مكتب الاتصال
ص. ب. ٥٣٧٦ بيروت – لبنان	box 4259 Limassol. Cyprus
هاتف: ٣٥٣٩٣٨–٧٤٢٠٨٨	فاكس: 344894
تلكس: 22662 OIK LE	تلفاكس: 05 – 324496

Panarion
Tel : 24143106
01000347 35.00
في تجسد الكلمة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

A.T.I.M.E.

رابطة الكليات والمعاهد اللاهوتية في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي
ص. ب. ٥٣٧٦ بيروت – لبنان
هاتف: ٣٥٣٩٣٨-٧٤٢٠٨٨
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال
Box 4259 Limassol. Cyprus
فاكس: 344894
تلفاكس: 05 – 324496

Panarion
Tel : 24143106
01000347 35.00
في تجسد الكلمة

coptic-books.blogspot.com